أَمِيرٌ سِجِلْمَاسَةَ

{الْيَسَعُ بْنُ سَمْغُو}

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسم الكتاب: أَمِيرُ سِجِلْمَاسِةِ {الْيَسِعُ بْنُ سِمْغُو}
المؤلف: محمد بودجبير الورياغلي
موضوع الكتاب: سرديّة تاريخيّة
عدد الصفحات: 118 صفحة
عدد الملازم: 7.375 ملزمة
مقاس الكتاب: 17 x 24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 3777 / 2025
الترقيم الدولي: 978-977-8796-33-9

القاهرة - جمهورية مصر العربية
01012355714
01152806533
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

أَمِيرُ سِجِلْمَاسَةَ

{الْيَسَعُ بْنُ سَمْغُو}

سرديّة تاريخيّة

تأليف

محمّد بودجبير الورياغلي

دار البشير

أعظم الشّخصيات في تاريخ المغرب

(إلماعات من تاريخ المغرب وحضارته بعيون أعلامه)

إهداء

إِلَى مَنْ خَرَجْتُ وَإِيَّاهُ مِنْ صُلْبٍ وَاحِدٍ...

شَقِيقِي حَمْزَة.

أَمِيرُ سِجِلْمَاسَةَ
{الْيَسَعُ بْنُ سَمْغُو}

(حكم في الفترة ما بين عام ١٧٠/ ٧٨٦ وعام ٢٠٨/ ٨٢٣)

اليسع بن سمغو (صورة متخيّلة)

{وَكَانَ جَبَّـارًا عَنِيـدًا، فَظَفِرَ بِمَنْ عَانَـدَهُ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَـرِ، وَقَهَرَهُمْ وَأَذَلَّهُمْ، وَأَظْهَرَ الصُّفْرِيَّةَ، وَأَخَذَ خُمْسَ مَعَادِنِ دَرْعَةَ. وَعَظُمَ قَدْرُهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ}.

البيان ج ١ ص ١٥٧

{وَعَـلَى عَهْـدِهِ اسْـتَفْحَلَ مُلْكُهُـمْ بِسِجِلْمَاسَـةَ (...) وَهُـوَ الَّذِي أَتَـمَّ بِنَاءَهَا وَتَشْيِيدَهَا، وَاخْتَطَّ بِهَا الْمَصَانِعَ وَالْقُصُورَ}.

ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢

تقديم

ليس الحُكم رسومًا ملوكيّة تجعل لفرد ما فضلًا على غيره وتلزمهم تجاهه بواجبات الطّاعة والاستكانة والتّقديس، الحكم إدارة وتسيير وسياسة، وبقدر استنارة هذه الإدارة وذاك التّسيير وتلك السّياسة وتوجيهها جميعها برُشد نحو هدف واحد هو مصلحة الإنسان يقاس الحكّام ويوزنون، فالحاكم العظيم من يسلك بقومه مسلك الجادّة، ويهديهم إلى مراقي الازدهار، ويحوّل- إن اقتفى سنّة الرّشد- الصّحراء المقفرة إلى جنّة ينعم فيها الإنسان بحقوقه وكرامته وحرّيّته، ويمكّن في أرضه استثمارًا لها وعمارة بها وطلبًا للأرزاق المشروعة في أرجائها كافّة، دون حواجز أو قيود تعوق سعيه المباح، وتحتكر حقًّا طبيعيًّا له فيها. ولا يكون كلّ حاكم وإن اجتمعت فيه النّيّة الصّادقة والاستقامة قادرًا على شقّ الطّريق مستقيمًا وتمكين الأرض لأهلها، إذ لا بدّ من أن تجتمع فيمن يتولّى القوّة والأمانة والكفاءة، ومع هذا لا يُستغنَى عن شرط واجب هو أن يكون عليه رقيب وزاجر أقوى، يستطيع التّقويم والعزل والإخضاع والعقاب، إن حاد أو مال أو فرّط أو لعبت به أهواء النّفس والطّمع الأصيل في كلّ من تولّى في الاستبداد، وفق إطار قانونيٍّ متين يستمدّ قوّته من كلّ فرد من أفراد الشّعب.

أمّا الحاكم العاجز فهو من يتسلطن على شعبه وينتحل لقبًا من الألقاب الملوكيّة أو الدّينيّة، ويستبدّ بأمره ورأيه ويرى الحكم حقًّا شرعيًّا له، وطاعةَ الشّعب له وعدم معارضته لهوى من أهوائه واجبًا عليه، وإن كان في ذلك هلاك الشّعب الواضح وبواره المبرم، فهذا الفرد المريض متى ما أناخت له الجماهير فإنّ مصيرهم سيكون الخمول والهلاك، هذا إن لم يُستعبدوا بين

الشّعوب ويصيروا مشـاعًا لنظام التّعليب البشريّ وعبيدًا لأدوات الاستكبار العالميّ.

ونحـن اليـوم وفي زمن اسـتبدّت بمصير الإنسـان في أمّتنا مـن المحيط إلى الخليـج طبقة حاكمة فاسـدة خاملة، لا لون لها ولا طعـم ولا رائحة ولا رؤية ولا مشروع ولا همّ، إلّا تأدية الوظيفة التي رسمها لها الاستكبار العالميّ خدمة لأجنداتـه، وتحصيـل ما اسـتطاعت من مصالح شـخصيّة ضيّقة، مـا أحوجنا للحفر في تاريخنا، واسـتدعاء شخصيّاتنا القائدة كاليسع بن سمغو، هذا القائد الفـذّ الـذي نفض عن بـلاده نظام حكـم خامـل؛ لا ليحلّ مكانـه على كرسيّ السّـلطنة، وإنّـما ليكرّس نفسـه لبنـاء نـواة حضاريّة عظيمة ومشرقـة، حوّلت منطقة صحراويّة قاصية شـبه معزولة في جنوب المغرب إلى إحدى أغنى مدن العالم في زمانها.

السّردية

بعـد أن أفضـت ثورة ميـسرة المضغريّ إلى مـا أفضت إليه، وعـادت البلاد بخيراتهـا إلى أهلهـا، اختار كلّ رجل طريقـه، وكلّ قبيلة مصيرها، فمن هؤلاء الرّجال من أدرك أنّ الدنيا تؤخذ غِلابًا، فاسـتثمر رصيده في استغلال الفرصة لتأسيس مُلك له ولبنيه، ومنهم من لعبت به الحماسة، ولم يتعلّم أنّ المعالي تؤخذ ولا تُعطى، فاندثر رسمه ولم تعد تذكره إلّا الجدّات في قصصهنّ العتيقة. ومن تلكـم القبائـل من اتّحدت تحت ممالـك جديدة، ومنها من عـادت إلى مضاربها الأولى في الجبال والواحات والصّحاري لتتابع سير حياتها الرّتيب، إمّا بالرّعي أو الزّراعة، وكأنّ شيئًا لم يحدث، وكأنّ هذا التّحوّل الكبير الذي أحدثته الثّورة في قلـب أرضنا ونفوسـنا وأفكارنا وحاضرنا ومسـتقبلنا مانحًا الجميع فرصة البـذر والـزّرع لا يعنيهـا، ويتجاوز قوالبهـا البائـدة. كأنّها لم تـدرك أنّ الثّورة أعطتنـا مفهومًـا جديدًا وواسـعًا عـن كلّ شيء. عن طرائق الحكم والرّياسـة، عـن أسـاليب الاقتصـاد والتّنميـة، عـن الجغرافيا، عـن التّاريخ، عـن الذّات والآخر، عن الإمكان والاسـتحالة، وعن الإسـلام. الإسلام الذي تحوّل بعد الثـورة ولأوّل مرّة من وسـيلة لحُكمنا من أجنبيّ طامع في أرضنا وشـعبنا، إلى دستور نستطيع الاعتماد عليه للتّأسيس والتّقعيد والبناء لنظام جديد يرقى بنا، لصناعـة حضارة خاصّة بنا تدمجنا في سـيرورة التّاريخ التـي غادرناها منذ أمد طويل، وتضخّ في ناعورتنا فيضًا لا ينضب.

كانـت قبيلتنـا مكناسـة مـن تلكـم القبائـل المشـاركة كإخوتهـا مـن قبائل المغـرب في ثورة ميـسرة، وبعد انقضاء الثّـورة عاد من كان خـرج من أفرادها إلى مضاربهـا الممتـدّة مـن ضفـاف وادي ملويّة شـمالًا، إلى ضفـاف وادي زيز

جنوبًا. إلّا أنّ هاته القبيلة التي كانت قبل الإسلام وحدة متّحدة ترجع لرئاسة جدّنا أبي نزول، تفرّقت بعده إلى بطون عديدة؛ نظرًا لكثرة عددها واتساع مجالها. فمنّا من جاز مع طارق النّفزي إلى الأندلس، واستقرّ هنالك بعد تمام الفتح[١]. ومنّا من استوطن الرّيف نواحي مدينة مليلة[٢]، ومنّا من استقرّ بمدينة گرسيف[٣]، ومنّا من استقرّ بنواحي مدينة مكناسة[٤]، ونواحي مدينة تازا[٥] ومنطقة التّسول[٦]، وقد انتهت رئاسة هؤلاء جميعًا إلى بني عمّنا، بني أبي نائل بن أبي الضّحاك بن أبي نزول. أمّا بطون مكناسة المستقرّة بسجلماسة[٧] وما إليها، فانتهت رئاستها إلى والدي سمغو[٨].

(١) راجع: جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٩؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١؛ الاصطخري ص ٤٤.

(٢) مليلة، أو مليلت كما بأصلها الأمازيغي، أو مليلية كما تنطق اليوم، مدينة مغربية قديمة جدًّا، تقع بمنطقة الرّيف على الساحل المتوسطي، تحتلها إسبانيا منذ عام ٩٠٣/ ١٤٩٧. وكانت لمليلة أهمية كبيرة كميناء للتجارة الصحراوية القادمة من إفريقيا عبر سجلماسة.

(٣) گرسيف أو جرسيف أو أگرسيف أو أجرسيف، كلها صيغ أمازيغية لاسم مدينة تقع شرقي المغرب في منطقة سهلية على الضفة اليسرى لوادي ملوية، عند نقطة اقترانه بوادي ملولو. وهو ما يفسر اسمها الذي يعني في اللغة الأمازيغية "بين واديين" أو "مزرعة الوادي" حسب صيغة النطق.
وللمدينة موقع استراتيجي؛ حيث تقع على تقاطعين طرقيين مهمين، يربط أحدهما بين فاس وتلمسان، ويربط الآخر بين مليلة وسجلماسة؛ ما جعلها شاهدة على أحداث تاريخيّة مهمة.

(٤) مكناس، المدينة المغربية المستلقية على هضبة سايس بين الأطلس المتوسط جنوبًا ومقدمة جبال الرّيف شمالًا.

(٥) مدينة مغربية تقع- كما يدل اسمها- وسط ممر يصل شرق المغرب بغربه، كما تحتل منطقة ربط بين الأطلس المتوسط الشرقي الجنوبي ومقدمة الريف الشمالي. وهي كما گرسيف ومليلة منطقة استراتيجية، خاصة في الجانب العسكري؛ لذلك اتخذتها مكناسة الشمال عاصمة لها.

(٦) إحدى قبائل ممر تازا، تقع في تلال مقدمة الريف شمال غرب مدينة تازا. وكان التسول تابعين لمكناسة الشمال وداخلين في حلفهم.

(٧) (سجلماسة إقليم يستمد اسمه من المدينة الرئيسية فيه، ويمتد على طول وادي زيز، ابتداء من الخنك من المضيق القريب من مدينة غارسلوان ونزولًا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلًا حتى تخوم صحراء ليبيا) الوزان ج ٢ ص ١٢٠.

(٨) أبو القاسم سمغو(ن) بن واسول بن مصلان (مزلان) بن أبي نزول المكناسي. ينتهي نسبه إلى مكناسة

كان والدي رجلًا شديدًا في الحقّ، غير متسامح في الخطأ حتّى لو صدر عنه، مؤمنًا بأنّ الرّياسة تتطلّب إلى جانب القدرة علمًا ومعرفة، وأنّ القائد الجاهل يسوق قومه إلى السّفالة والدّنيّة، ويجني عليهم بتفاهة رأيه أكثر ممّا قد يجني عليهم عدوّ بسلاحه. بينما الدّارس الفقيه يُحَصِّل لهم الشّأو والمنزلة، وينسب إليهم المجد والفخار؛ لأجل ذلك ارتحل في طلب العلم مبكّرًا، ووصل في رحلة حجّ إلى مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، منبع الإسلام ونور العالم، وبها أدرك طائفة من التّابعين[1]، وأخذ عنهم الحديث حتّى صار من أهله[2]، واغترف من معينهم حتّى ارتوى وانتفخت أضلاعه. وفي طريق عودته إلى المغرب عرّج على القيروان[3]، وبها اجتمع بعكرمة البربريّ مولى ابن عبّاس[4]، فأنس إليه ورأى أنّ الأخذ عن مثله لا يفوت، فجلس إليه ولقن عنه ما شاء الله له من العلم والفقه والتّفسير، ليعود إلى المغرب ممتلئ الوطاب بالعلم والفقه، فكان بذلك نادرة في قومه وسيّدًا قولًا وعملًا وسمتًا وسلوكًا، فللّه درّه.

بن ورسطف بن يحيى بن ضري بن زجيك بن مادغيس بن بر. راجع: جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٦؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١. وسمغو أو سمگو أو سمقو أو سمغون الذي يذكره المؤرخون كاسم لوالد مترجمنا، هو في الأصل اشتقاق أو تحريف لكلمة "إسمغ" أو "اسمگ" وتعني في اللغة الأمازيغية "الرجل الأسود".

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢.

(٢) الاستبصار ص ٢٠١.

(٣) البكري ج ٢ ص ٣٣٤.

(٤) عكرمة البربري، أبو عبد الله، المدني، مولى ابن عباس، من كبار التابعين الربانيين، ومن أعلم أهل زمانه، لازم ابن عباس مدّة طويلة حتى صار اسمه مقترنًا به، وعنه أخذ علمًا جمًّا بلغ به مرتبة من العلم كان يفتي في حياة ابن عباس وبأمره. اتهم بأنه كان يرى رأي الخوارج، مرة اتهم بالصفرية ومرة بالإباضية ومرة بالنجدية وإن لم يثبت من ذلك في حقه شيء بالحجة. توفي عام ١٠٧هـ على خلاف.

وحين دعا ميسرة المضغري شيوخ القبائل إلى الثّورة على الحكم الأمويّ الجائر لبّى والدي الدّعوة، وانخرط في الثّورة بعقله ووجدانه ومهجته، وذهب فيها إلى أقصاها. فشارك في أكثر من معركة، وخاض أكثر من سجال، وما إن وضعت الحرب أوزارها، وانقصف الأمويّون قصفتهم القبيحة في بقدورة، وطُهّر المغرب من بغيهم وسوء جريرتهم، عاد والدي إلى سجلماسة، وقضى متنقّلًا في هذا الإقليم الواسع سنوات طويلة، يمارس وظيفته كشيخ للقبيلة ويرعى مصالحها من جهة، ومن جهة أخرى يستثمر ما تعلّمه ولُقِّنه ورآه وعاشه في تعليم النّاس الإسلام، وبثّ المبادئ الإنسانيّة الدّاعية إلى العدل والسّويّة بين جميع المسلمين، باختلاف ألوانهم وأجناسهم، ودعوتهم إلى الاستمساك بتلك المبادئ والتّحلّي بها، فلا عيش سيطيب لبني الإنسان وغلالة الكره والتّعصّب والكبر تلفّ قلوبهم وتعمي بصائرهم.

أدرك والدي بنصاعة ذهنه أنّ حالة التّشرذم والتّشتّت والارتحال المستمرّ، التي تعيشها مكناسة في مجالها الصّحراويّ البدويّ، أكبر حائل يمنع النّاس من تشرّب المبادئ التي يدعوهم إليها، وليس تحرّرهم السّريع منها وانحلالهم من قيدها الأخلاقيّ والارتكاس السّريع الذي يبدونه إلى الفوضى والصّراع إلّا نتيجة طبيعيّة لطبيعة معاشهم.

إنّ عدم استقرار المذهب أو الرّأي أو الفكرة وتركّزها في درّة مشعّة، يحول دون تقرّرها في النّفوس والأفهام. إنّ الكعبة لا تزور بل تُزار، وتعلّق النّاس بدعوة وإقبالهم على مبادئها لا يغري من لم يرها مجسّدة منزّلة ممارسة معمولًا بها.

من هاته القناعة السّليمة عرف والدي أنّ عدم وجود مركز ثابت للدّعوة التي كان يحاول نشرها بين قومه هو أكبر عائق أمام ارتقائه منزلة الإمام في عيون النّاس، ليس من أهل مكناسة فقط، فهؤلاء يدينون لوالدي بالتّبعيّة

والإخـلاص الكامل، بـل في أعين بقيّة قبائل المنطقة، التـي طالما دعاها لحلف يرأسه إمام واحد، يكون له ما للأئمة من إقامة للشّرع، وتطبيق للحدود وقيادة للجيوش ودفاع للعـدوّ، وذود عن الأمّة وتصدّر للمهمّات. وأيقن أنّ أوجب الواجبات وأولى الأعمال الانتقال من مرحلة الدّعوة إلى مرحلة التّأسيس لكيان جامع يستوعب مكناسة أوّلًا، وكلّ العناصر المتنوّعة الأخرى والقبائل الكائنة بهـذه النّاحية الصّحراويّة القاصيـة. فانطلق متزوّدًا بمعرفته الواسـعة بالمجال وخبرتـه بـه، وبما حصّله من علـوم ومعارف يعاين ويدقّـق ويراعي، ويدرس ويزن وينتخب ويفاضل بين ما اجتمع له من مواقع وأماكن.

كان إيجـاد مكان مناسـب يوفّر مركزيّة التّأسـيس والاسـتقرار وسـط هذه الصّحراء الشّاسـعة أمـرًا ضروريًّا في الاختيار، على أنّه كان أمـرًا صعبًا أيضًا؛ فحسن اختيار موقع يكون إلى جانب شرط المركزيّة موجودًا على طريق مطروق من سـائر قبائـل الرّحل، وقابلًا للازدهار والنّمـوّ، ومتوفّرًا على مصادر الحياة الضّروريّـة وخاصّـة الماء، مع إشرافه على الشّـمال بقـدر انفتاحه على الجنوب، كانـت كلّها شروطًـا لا مندوحة مـن تكاملها فيه. وقد أعانـه اختلاطه بتراب هاتـه البلاد ورملها، ومعرفته الشّـاملة بها كمعرفة الرّجـل لراحة يده من تخيّر أفضل المواقع وأنسبها.

لم يكن بموقع مدينة سجلماسة وقتذاك مدينة عامرة كما هي المدينة اليوم، وحتى لـو وجدت بموقعهـا مدينة من بناء الأوّلين كما يحكي بعـض النّاس ويروون[1]، فـإنّ المدينـة القديمة التـي كانت بهذا المحلّ اندرسـت تمامًا حين اختـاره والدي موقعًـا وقاعدة لتأسـيس إمامتـه الشّرعيّة. إلّا هـذا الموضع بفضل مـا تميّز به من

(١) الوزان ج ٢ ص ١٢٧. انظر أيضًا: سجلماسة وإقليمها ص ٨٦.

محوريّة وبروز وفرادة، لم يكن فتحًا أو اكتشافًا غير مسبوق، كما لم يكن موقع مثله ليخفى على عارف متبصّر من المتقدّمين أو المتأخّرين. بل لقد كان موقعًا معروفًا مشهورًا عند كلّ قبائل المنطقة، التي ترتحل ذهابًا وجيئة في رحلة انتجاعها على طول وادي زيز[1]، بل إنّ والدي كغيره من أهل المنطقة انتجع بموقعها أكثر من مرّة[2]. إلاّ أن العبقريّة لا تكمن دائماً في ابتداع ما يندر الإتيان بنظيره، بل وأيضًا في استثارة ما هو موجود سلفًا بين يديك، ومحاولة استدرار كلّ ما يستطيع منحه إيّاك خدمة لقومك ورسالتك.

كان موقع سجلماسة- عطفًا على ما سبق- مغريًا لاتّخاذه قاعدة استقرار وتأسيس مدينة تكون قصبة الإقليم وعاصمته، يأوى وينظر إليها، ويقصدها كلّ صاحب تجارة ومهنة وحرفة وطلب، فهاته الهضبة العالية، المرتفعة عن مستوى غمر مياه فيضانات وادي زيز، والمشرفة على امتدادات سهليّة واسعة وصالحة للزّراعة[3]، والمتواجدة في المنتصف من كلّ شيء، هي أعزّ ما يطلب ويرتجى في أيّة مدينة بالوظيفة التي ستوهب لها.

ما إن اختار والدي الموقع حتّى كبّر ولبّى، ورفع النّداء عاليًا "حيّ على العمل حيّ على الفلاح"، مدركًا أنّ اليد الواحدة لا تصفّق، وأنّه لا بدّ للرّسالة من أعوان يحملون همّها ويفدونها بعقولهم وسواعدهم، ويُفنون في سبيلها حيواتهم ويقدّمون مُهَجهم إن اقتضى الحال.

ولإن كان الرّجل العظيم الكامل الهمّة القويّ العزم يُخذَل بغياب أنصار يعضّدونه ويحملون معه الهمّ والكَلّ، فإنّ والدي لم يعدم السّند والأنصار،

(١) وادٍ ينبع من جبل العياشي بالأطلس الكبير الشرقي، ليخترق إقليم تافيلالت من شماله إلى جنوبه مرورًا بالخنگ ومضغرة والرتب وتيزيمي وتافيلالت- بالمعنى المحلي للكلمة- قبل أن يخرج إلى الصحراء.

(٢) البكري ج ٢ ص ٣٣٤.

(٣) راجع: سجلماسة وإقليمها ص ٨٦.

والقبيل والأتباع، فما إن أزف المعاد وآن الميقات حتّى أذّن فيهم يُعلمهم بالحضور إليه والاجتماع عنده، وما إن وصلهم الأذان حتى أتوا رجالًا وعلى كلّ ضامر من كلّ فجّ عميق أربعين رجلا[1]، هم أخلص أصحابه المؤمنين بمبادئ مذهبه، ممّن لهم سبق الجهاد في سبيل نشره، وإنقاذ النّاس به من براثن التّبعيّة والخضوع لسلطة الجور البائدة، ورموز الاستبداد المندرس دون أن يصيبهم وهن ولا استكانة. ومع هؤلاء الأصحاب المجاهدين، ذوي الدّين والورع والقّوة والهمم العالية وضع والدي أوّل لبنة في مدينة سجلماسة عام أربعين ومائة للهجرة، فكانت النّواة مباركة، والغرس مثمرًا. وسرعان ما تسامع النّاس بخبرهم، فانضمّ إليهم أقوام من مكناسة وغيرها، وابتنوا لأنفسهم بها دورًا ترابيّة.

هكذا تأسّست مدينة سجلماسة، درّة الصّحراء ومنارتها الوهّاجة المشعّة على كامل المفازة الكبرى، وجذر المغرب وشريانه وهمزة وصل جنوبه بشماله، وصحرائه الشّاسعة بجباله الشّامخة. وهكذا نشأ جسمها وبدأ يتشكّل هيكلها وغُذِّي بهاته العناصر الغنيّة، أمّا الرّوح التي ستنفخ فيها فكانت هي انتخاب إمام.

***

(١) البكري ج ٢ ص ٣٣٤؛ البيان ج ١ ص ١٥٦.

بعد استجابة الأصحاب لأذان والدي واجتماعهم بموقع سجلماسة، كانت مسألة اختيار إمام يبايعونه أمرًا مفروغًا منه عندهم، فكلّهم مجمع على أحقّيّته بالإمامة؛ نظرًا لأسبقيّته وعلمه وحكمته ومكانته ورياسته ووجاهته، إلّا أنّ والدي وهو الرّجل الفطن الخبير، أراد تلقين أتباعه أوّل درس تطبيقيّ عن مبادئ العدالة والتّكافؤ التي كان ينادي بها طيلة هاته السّنين، بتأخّره عن تلقّي هذا التّكليف الجلل وتقديم رجل سودانيٍّ من موالي العرب[1] قد يكون أحطَّهم نسبًا وأحقرهم منزلة وأدناهم رتبة وأقبحهم صورة لتقلّده، ويُعلِم بذلك أهل الصّحراء من كافّة القبائل أنّ سجلماسة مدينة الجميع، سودًا كانوا أم بيضًا، أحرارًا أم موالِيَ، مكناسيّين أو صنهاجيّين أو زناتيّين أو من أيّة قبيلة أخرى. وأنّ إمامتها إمامة لا عصبيّة ولا عنصريّة، وإنّما إمامة حقّ، إسلاميّة شرعيّة قائمة على مبادئ العدالة والتّساوي في الحقوق، بصرف النّظر عن الأصل والعنصر والنّسب.

كان والدي أوّل من بايع عيسى بن يزيد الأسود، ثمّ تبعه أصحابه الأربعون ثقة وتسليمًا. أمّا القبائل فكانت مكناسة أوّل من بايع بأمر مباشر من والدي[2]، ثمّ بايعت بقيّة القبائل وسائر النّاس تبعًا لها، وهكذا تأسّست سجلماسة الإمارة.

تولّى عيسى وظيفته في نفس العام، وكان على أصلح ما يكون الإمام من إقامة العدل والأمر بالمعروف ومشاورة المسلمين. وفي زمانه توسّعت المدينة وقصدها النّاس وانطلقوا في إعمار الأرض ببناء الدّور والمساكن واستصلاح الأراضي السّهليّة، وزراعة ما لذّ وطاب من أشجار التّين والزّيتون والرّمان

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢.

والنّخيل والكروم وغيرها من خيرات الله وزخارف الطّبيعة.

ثمّ بعد سنوات من القيام بالحقّ والثّبوت على سبيله استزلّه الشّيطان ولعبت به الأهواء، فتحوّل عيسى عمّا بويع عليه، وظهرت منه أمور منكرة وأفعال معيبة، كمحاولته الاستبداد ببعض الشّؤون والآراء، وكتغييره لبعض التّعاليم المضبوطة، وانحرافه عن بعض المبادئ الأساسيّة، وتعدّيه على بعض الحقوق والأموال، وظهور أشياء منه تدلّ على خفّة عقل وطيش وحماقة، وهرول في هذا المسار ينقض عُرى الإمامة عروة بعد عروة. وجابه محاولة الأصحاب تقويم اعوجاجه وردّه إلى الصّواب بالمكابرة والتّصلّب والتّبرير، بل ودفعته عميّته إلى التّمادي في اقتراف ما ضاعف سخطهم عليه، فاجتمعوا إلى والدي وتشاوروا معه في شأن تخليص سجلماسة من أداة التّفرقة ومعول الهدم الذي يتربّصها، وانتهى بهم القرار إلى قتله. ولكي يصير عبرة لمن لا يعتبر، ألقي عليه القبض وأخذ إلى قنّة جبل، وشدّ وثاقه إلى شجرة وتُرك هناك ليلقى مصيره المحتوم. فبقي عيسى مُوثَقًا بالجبل المسمّى باسمه إلى أن هلك غير مأسوف عليه، وذلك بعد أن تولّى الإمامة خمسة عشر عامًا[1].

***

إنّ قيمة الأشياء تكمن في الحاجة إليها، وكذلك الأشخاص، قيمتهم في حاجة النّاس إليهم، وعدم قدرتهم على الاستغناء عنهم، ورغم أنّ عيسى تولّى إمامة سجلماسة خمسة عشر عامًا، فإنَّ أحدًا لم يحسّ بغيابه، وحتّى عندما أُعلنت نهايته، لم تدعُ الحاجة إليه أحدًا للسّؤال عنه أو الأسى على فقدانه، بل العكس من ذلك؛ تبيّنت القيمة الحقيقيّة لوالدي، الذي تحمّل طيلة سنوات إمامة عيسى أعباء الإدارة والتّسيير والتّنظيم، ووظيفة الدّعوة إلى الدّين الإسلاميّ،

(١) البكري ج ٢ ص ٣٣٥.

وتصحيح المعوجّ من عقائد وتصوّرات وتقاليد اجتمعت في بلادنا وتواتر أهلها على اقترافها، وها هو اليوم بعد أن انكشفت الغمّة بتلبيسها وتفليسها يجد نفسه حيث كان يجب أن يكون منذ أمد، إمامًا حقًّا يَؤُمّ ويُؤتمّ به، وأميرًا يأمر الجماعة فتطيع.

بعد تخلُّص الأصحاب من عيسى، اجتمعوا مع والدي في الجامع وأحاطوه إحاطة الحواريّين بالمسيح، وعزموا عليه إلّا قبول الوظيفة والتّكليف، فلا مجال للزّهد فيها ولا الاعتذار عنها، فلا هُمْ ولا أحدٌ من النّاس سيقبل بغيره إمامًا، ولا سجلماسة سترضى بأمير غيره.

كانوا يعرفون مدى تعلّق القوم وتقديرهم الكبير لوالدي، كما كان القوم من جهتهم معتبرين والدي إمامهم وأميرهم، الذي يأتمرون بأمره ويلجئون إليه متى ما أصابتهم مصيبة أو دهمهم داهم في أمور دينهم ودنياهم، وأنّ كلّ ما كان ينقص هو إعلانه ومخاطبته بالإمام، بعد إيقانهم أنّ أمثال عيسى ما كانوا ليقودوا الإمارة إلى خير يُرجى ولا ليُحصّلوا حتى لأنفسهم نفعًا.

في الجامع يوم الجمعة اعتلى والدي المنبر، كانت تلك هي الإشارة التي لا تحتاج إعلانًا معها عن قبول والدي تولّي الإمامة، فتفاءلوا واستبشروا وكبّروا لهذا الإعلان العظيم الجلل. وأراد والدي من خطبته تلك أن تكون تعاقدًا والتزامًا منه تجاه الجماعة على إقامة الشّرع وتطبيق الحدود، ومحاربة البدع والأهواء واستئصال الشّقاق وبثّ السّلام والإخاء، وردّ العدو ومجابهة الأخطار والقيام بكلّ واجب شرعيّ ودنيويّ. وما إن اختتمها وصلّى وسلّم على سيّد البرايا حتى أقبلت إليه الجماعة صغارًا وكبارًا يبايعون له، مرحّبين بإسناد الأمر إلى أهله وأقوم النّاس به، مستبشرين وهم يقبّلون يديه وكان عندهم محلّ تبرّك، ولاقاهم بدوره بما عُرف عنه من شكر ودعاء وتلطّف،

طائب النّفس بما يراه منهم سليم الطّوية والنّيّة فيهم.

واظب والدي خلال السّنوات التّالية على القيام بوظيفته دون تكاسل أو وهن، مقتفيًا بذلك سنّة الرّسول المصطفى، مكرّسًا نفسه وعلمه وجهده لصلاح أمّته وبلاده، يَؤمّ المؤمنين في الصّلاة، ويعتلي المنابر في الخطب، ويفتي النّاس في النّوازل، ويذكّر النّاس بربّهم، ويعلّمهم سنّة وحديث نبيّهم، ويرشد الحيارى والتّائهين ويدلّهم على سبيل ربّهم ومراقي الوصول إليه، ويقيم الحدود على المتجاوزين، مع حضّ على الزّهد والتّرفّع عن السّفاسف والثّبات على الحقّ. ولأنّ عمارة الدّين كعمارة الدّنيا، لم يهمل الإمام القيام بنفسه على المعاملات، وتنظيم البيوع، وجمع الأعشار وتوزيعها، وفكّ المنازعات، والقضاء بين المتخاصمين، وإحقاق الحقوق، وإنصاف المظلومين، وتجهيز المرافق، وشقّ الطّرق، وما ارتبط بواجبات الإمام في المسجد والسّوق والبيت والسّاحة، في المأمن والمفزع. فامتدت أيّامه في تمام العدل والنّزاهة والهناء والعافيّة والسّرور، إلى أن جاءه داعي الآخرة بطيّ الصّفحة وخروج الرّوح.

رحل والدي في ليلة تجلّلت سماء سجلماسة فيها بأجرام مشعّة، وران عليها سكون عميق، واعترت الجميع راحة خالصة وصفاء سَنِيّ، كان واضحًا لكلّ نفس شفّافة أنّ السّماء تتزيّن، وتستعدّ لشيء عظيم لم ندركه إلّا بعد وقوعه.

خرج والدي من بيته كعادته بملابسه البيضاء النّاصعة، ووجهه البشوش المزدان بلحية بيضاء قاصدًا الجامع المتاخم لمنزله لإمامة المصلّين في صلاة العشاء، كان مجرد حضوره ووقوفه كعادته في المحراب بقامته السّامقة أمرًا جليلًا، يصبغ وجوه الحضور بتوقير وتهيّب، غير أنّ شيئًا خفيًّا احتجب لَيلتَئذٍ خلف نظراته الحانية التي لفّ بها الجميع قبل أن يستدير ويكبّر.

كان صوته الجهوريّ صادحًا من داخل المحراب مرتلًا الآيات المختارات

من سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]. يزيد المصلّين خشوعًا، ويزيد المتبصّرين منهم إيمانًا بفرادة هاته اللّيلة وقَداسة ما تلبّسها من روح قُدُسيّة، ولم يسكت عنّي الخشوع وقد كنت في الصّف الأوّل خلفه مباشرة إلّا في السّجدة الأخيرة من الرّكعة الرّابعة، حين رفعت بعد أن طال بي الانتظار وكبّرت وتحّيت وسلّمت بالمأمومين، ثمّ هرعت إلى المحراب لأستيقن ممّا كنت متأكّدًا منه.

توفّي إمام سجلماسة ساجدًا[2]، توفيّ كما كان يدعو ربّه من طرف خفيّ أن يُقبض، انتقل الإمام إلى جوار ربّه بصورة يتمنّاها كلّ مؤمن بالله، بصورة لم يسبق لسجلماسيٍّ أن حظي بمثلها، بصورة تدلّ على أنّ حياته في الدّنيا لم تكن إلّا تغريبة عن وطنه العُلويّ الذي عاش له وفي سبيل بلوغه، بصورة تلخّص حياة طويلة لم ينفقها إلّا في الدّعوة إلى الإسلام، والعمل لمنفعة العباد وعبادة الله، والتنسّك والتّقوى في الظاهر والباطن.

"عاش في بلادنا هاته وليٌّ صالح وزاهد ربّانيٌّ، ستمتدّ بركته ما بقيت سجلماسة".

هذا ما سيردّده الجدّ للحفيد، والمقيم للزّائر، والبلديّ للغريب، والسّابق للّاحق إلى أن يشاء الله.

***

(١) سورة آل عمران- الآية ١٨٥.

(٢) البكري ج ٢ ص ٣٣٥.

عنى موت والدي فقدان سجلماسة لوليّها وعالمها ورجلها ومؤسّسها وإمامها وأميرها، ولَإِن كانت الولاية والعلم أمرًا يفوت بفوات رجاله ويقبض بقبض أرواحهم، فإنّ الإمامة والإمارة لا بدّ لها من رجل يقوم بها ويسدّ ثلمتها، فاجتمع الشّيوخ والأصحاب وأهل الرّأي والنّظر في سجلماسة على تقديم أخي الأكبر منّي إلياس[1] للإمامة، فبويع بمحضر كلّ أهل سجلماسة وتلقّب بأبي الوزير.

لم ينتبه أهل الرّأي والأصحاب وهم تحت تأثير شخصيّة والدي أنّ الخَلف لا يكون دائمًا بمستوى خيريّة السّلف، وخانتهم الحصافة والحكمة إلى التّنبّه إلى أنّ إلياس لم يُبْدِ طيلة فترة حكم والدي أيّة إشارات أو علامات تمنحه أهليّة حمل هاته الأمانة الجليلة. فلطالما كان إلياس ومنذ حداثته ضعيف الحضور، غافلًا ومهزوزًا ومتردّدًا.

صحيح أنّ والدي حرص على تلقيننا أنا وهو نفس التّعليم والتّربية والمبادئ، إلّا أنّ ما تفتقر إليه النّفس من طبائع وخصال ومواهب، لا يستطيع العلم وحسن التّربية وحدهما تعويضه. إذ لا بدّ من رشد ورصانة، وقوّة وأمانة، وحزم وصرامة ونزاهة نفس في كلّ من يُعَدّ أو يُندَب أو يُختار لتحمّل مسؤوليّة القيادة، ومتى ما عُدمت هاته الشّروط زال الاستحقاق وانتفت الجدارة.

لم أستطع الاعتراض على ترشيح الأصحاب إلياس للإمامة، ولا مصارحة أحد برأيي فيه كي لا أُتّهم بالطّمع في الرّياسة، ولا حتى الاحتفاظ لنفسي بحقّي الشّرعيّ في عدم مبايعته لأمور بدت لي وقتها. وعلى العكس من ذلك وقفت إلى جانبه وساندته وكنت أوّل المبايعين له، وأملي في ذلك أن يُخيِّب تصوّراتي

(١) كان لصالح بن طريف البرغواطي ولدان يحملان نفس اسَمَيْ وَلَدَي سمغو (اليسع وإلياس)؛ ما يمكن الاستدلال به على أنّ الأسماء العبرانية كانت منتشرة بالمغرب خلال هذه الفترة.

ويبيد وساوسي ويقلب نظرتي له ويبدي نقيضها، وحدّثت نفسي في لحظة رقّة أخ لأخيه: لعلّها تنصلح حاله ويلهمه الله حسن الرّأي.

دشّن إلياس فترة حكمه بطريقة ساذجة، كان كالأعمى العاجز، غير قادر على بناء تصوّر أو إبداع مشروع، فلم يعمل على تغيير شيء ممّا خلّفه والدي، كما لم يعمل على الزّيادة فيه شيئًا. وكأنّ هدفه من تولّي إمامة سجلماسة هي تجميد إرث والدي كما هو، كأنّه يظنّ أنّ السّلامة والنّجاة في الاستقرار، الاستقرار الذي ليس في حقيقته إلّا جمودًا وتكلّسًا؛ غافلًا بذلك عن حقيقتين: أولاهما أنّ الجمود يعني التّخلّف الحتميّ، والحفاظ على وضع قائم واعتماد نجاعة بقائه على حاله أشدّ ضروب الارتكاس فداحة، وثانيتهما أنّ وتيرة التّطوّر المتسارعة التي يشهدها المغرب كلّه ستتجاوز كلّ من لم يجاريها وستمحق كلّ من لا يتطوّر معها.

عاش إلياس سنواته الأربع الأولى مستفيدًا من سمعة والدي وصبر النّاس على رعونته، ومقتاتًا من أملهم في انصلاح حاله وقيامه من سباته. غير أنّ صبر الإنسان يتوقّف حين يحسّ بالتّهديد، وقد أحسّها أهل سجلماسة لأوّل مرّة وعلى جهتين.

فمن جهة هُدّدوا في معايشهم بتقلّص مواردهم وضيقها، وفي أموالهم باختلال قانون التّجارة بفعل غياب منظّم يقرّه بصرامة. ومن جهة أخرى أحسّوا بتهديد يتربّص بأرواحهم، مثّله خروج مجموعة من القبائل عن طورها، وتعدّيها على الطّرقات وقطعها سبل القوافل والأفراد وسلبها الأرواح والأموال، فكثر القتل والسّلب والهرج، وأمسى النّاس في مثل عصر الجاهليّة، إضافة إلى ما مثّله ظهور رجل من آل البيت في الشّمال أتى حديثًا من المشرق واجتماع قبيلة أوَرْبة وحلفها القويّ على نصرته وتأييده من تهديد لإمارتنا.

هنـا وجدتني مضطرًّا للقـول الصّريح، للإعلان عن رأيـي الذي جاهدت في كبتـه طيلة هاتـه السّـنوات دون مواربة، للمجاهرة برفضي لسياسـة إلياس الجامـدة ونهجه الأعمى، لإسـماع صوتي لـه لعلّه يوقظه من سـباته أو يخلخل سريره. فتوجّهت إليه بلسـان المُوقظ والموجّه والنّاصح فلم يسـمع، ثمّ خوّفته عاقبـة تقاعسـه واسـتهتاره فلم يرتـدّ، ثمّ جاهرتـه بمعارضتي له فلـم يُبدِ أيّ تجـاوب مع صيحاتي، وأخيرًا ذكّرته بعاقبة عيسـى بن يزيد الأسـود، وحذّرته من استنساخ تجربته فاستخفّ.

حالـت الفقاعة التي سـجن إلياس نفسـه داخلها دون سـماعه لأيّ صوت موقـظ له من نوم غفلتـه، أيّ بؤس أكبر من هذا؟ أيّة غفلة هاته بل أيّ موت؟ وكـما قد قيل: "وقد أسـمعتَ لو ناديت حيًّا ... ولكـن لا حياة لمن تنادي[1]". ومن ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة لا يهديه بعد الله أحد.

مـاذا بعـد القـول إلّا العـزم، ومـاذا بعـد العـزم إلّا الفعـل، وقـد تعلّمت مـن والـدي أنّ الـتردّد والتّمنّي والدّعـاء وحده لا يصلح ما أفسـده الغافلون والمعاندون، وقد شجّعني تجاوب القوم مع مقالتي وسرعة انحياش طائفة من شـيوخ القبائل وأهـل الحلّ والعقد إليَّ وتأييديهم لمـا جهرت به في الإسراع إلى تدارك ما فات ورتق ما فُتق.

اتخذت من سنّة والدي وسيرته نهجًا وخريطة، فقضيت عام ثلاث وسبعين ومائة للهجرة سـائرًا على خطاه مقتفيًا حذوه، أتنقّل في أقطار سجلماسـة وبين قبائلها، أدعو هؤلاء وأتحالف مع أولئك وأعد آخرين، أزيل الغبش عن أعين لم تـدرك بعد إلى أيـن يجرّنا إلياس برعونته، وأُعرّف المتعاطفين معه أنّ العاطفة لا تبني دولة ولا تقيم عدالة، إنّما هو التّخطيط والجدّ والعمل والكفاءة.

(١) بيت شعر اختلف في نسبته، على أن الأشهر أنه لعمرو بن معد يكرب.

إنّ تصميمي على تخليص سجلماسة من آفتها وحجر عثرتها ثمّ إعادة بنائها على ما تستحقّه وتتمنّاه أسمى أهدافي.

إنّ بقاء سجلماسة وضمان استمرارها رهين بوجود رجل قويٍّ أمين على رأسها.

إنّ هاته المدينة المنذورة لأرفع مكانة وأجلّ قدْر أسمى من أن تترك بين يدي رجل لا يرى سموًّا حتّى في نفسه.

بالصّبر والحكمة، وبالإخلاص في العمل، وبمساندة من اتّبعني وآمن بصدق نيّتي سأقوم بواجبي تجاهك سجلماسة، ستبرئين من دائك أميرة النّضارة، سأجمّلك وأفخّمك وأعظّمك يا زين البلدان، سأحرّرك من عقوق إلياس بك يا لينة الصّحراء وأعطيّتها الباهرة. أنا اليسع ابنك الذي لن يتورّع في أخذ الجميع بالشّدّة قبل اللّين في سبيلك. البارحة توقّع وتقدير، واليوم إعداد وتدبير، وغدًا إنجاز وتنفيذ، والله المُسدِّد والموفِّق.

حلّ عام أربع وسبعين ومائة وأطلّ على أرضنا المباركة المعطاء بوجهه المشرق، وأغلب شيوخ سجلماسة وكبرائها منضمّون إليَّ، داعمون لهدفي، عازمون على تخلية البلاد من سيّئتها وتخليصها من نقمتها، وكلّهم موقن فساد إصلاح إلياس أو علاجه، متأكّدون من جنايته على نفسه وعليهم، آملون في مستقبل بهيج لهم ولقبائلهم يفتحه سبحانه بإذنه على يديَّ.

***

لكلّ غرس ثمرة، والغرس غُرس، وها هي الثّمرة قد أينعت وحان قطافها، وكان أوّل القطف بيعة أخذتها من سائر شيوخ القبائل وأهل الحلّ والعقد، ومن المعتبرين من ذوي الفهوم والعلم، ومن المقدَّمين من أهل النّجدة

والحرب، وسائر من حضر من أهل سجلماسة. ومن بؤس إلياس أن يصدق في حقّه قوله تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1]؛ فيعدم وجود مناصر أو متعاطف واحد معه يُنبيه بما قُضي على أعين النّاس في شأنه، علّه ينتشله من وهمه السّحيق.

وفي اليوم المتّفق المعلوم، حُشد من خُصّ بالحضور والمواجهة والتّطبيق، متقلّدين سيوفهم عارفين لأدوارهم، فأحطنا بدار الإمارة حيث يقبع إلياس غير آبهٍ بما يجري حوله إحاطة البحر بالجزيرة، واقتحمنا عليه سكرته، وما إن تخلّص من خدر المجاز إلى الحقيقة المرّة واستفاق لجيوش الحقّ وقد كرّت عليه حتى انتفض مذهولًا، وواجهني بتوتّر مفضوح:

– اليسع! ما الذي تفعله ها هنا؟ كيف تدخل عليَّ شاهرًا سيفك؟ ومن هؤلاء الرّعاع[2] الذين تسوقهم خلفك؟!

– ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[3]. هذا سيف الحقّ أتاك، وهؤلاء حماته جاءوك ليزهقوا باطلك.

– أوَتريدون قتلي؟! تريدون قتل إمامكم؟ أيّة شرعيّة فيما تقترفونه؟ أين عهد والدنا؟

---

(١) سورة الأعراف– الآية ١٧٩.

(٢) الرّعاعُ: الْأَحْدَاثُ الطَّغَامُ، والطَّغَامُ: أَرذالُ الناس وأَوغادُهُمْ. ويقال: الرَّعَاعُ: السِّفْلَةُ مِنْ النَّاسِ، الْوَاحِدُ رَعَاعَةٌ. وَيُقَالُ هُمْ أَخْلَاطُ النَّاسِ. انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ج ٣ ص ١٢٢٠؛ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ج ١ ص ٢٣٠.

(٣) سورة الإسراء– الآية ٨١.

– هذا السّيف عهده.. أمّا شرعيّتك فسقطت حين أهملت واجباتك وأتبعت نفسك هواها.

– كيف لم أفطن لطموحك وجشعك.

– هذه أعظم سوءاتك، أنّك لا تفطن لشيء.

– أيّ خطأ اقترفته حتى جئت اليوم لتحاسبني عليه؟

– خطؤك الغفلة والتّقصير والجمود.

– أوَليس من حقّي الخطأ؟ أوَليس الأصوب نصيحتي؟

– مرفوض الخطأ في حقّك ممنوع. خطأ المسؤول وإن كان طفيفًا في نظره فهو عظيم في تأثيره على عامّة النّاس ومن سمّيتهم رعاعًا، وأغلبهم وبفضلك صار من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، الذين يحدّد الدّرهم والفلس تصاريف معيشتهم. وقد جاوزت الخطأ إلى الإصرار يا ميّت الضّمير والوجدان حتّى أفسدت وأهلكت.

– ومن أنت لتحاسبني؟ فليحاسبني النّاس، فليقولوا: "ظلمتنا يا إمامنا، أسرفت في الجور، أهلكتنا".

– وأين أنت منهم حتى تسمعهم؟ من يريد سماع صوت النّاس فلا بدّ له من العيش بين ظهرانيهم، في مساجدهم وأسواقهم. هل تظنّ أنّ الظلم مقصور على الإساءة والتّسلّط والاضطهاد والإرهاب والبغي والشّطط وإخراس كلّ معارض أو منتفض؟ إنّ تقصير الحاكم عن أداء واجباته أكبر المظالم. وغفلته عن سماع آهات أمّته أفظع أضراب الاستبداد. وتأكّد أنّي لم أحمل سيفي إلّا بطلب من النّاس وموافقتهم وبيعتهم. لا أحد في سجلماسة اليوم يريدك.

– فرصة أخرى وقليل من الصّبر وسأصلح كلّ شيء. تعرف أنّي لست بالكاذب ولا المنافق.

– أعرف أنّك لست بالكاذب ولا المنافق، أنت لست شيئًا أصلًا، معدوم من كلّ شيء. صبرنا عليك ما يقارب الستّ سنوات، رغم أنّك لا تستحقّ صبر ساعة. وهَبْ أنّي منحتك فرصة أخرى، هل تحسب أنّ أحدًا من أهل سجلماسة مستعدّ لفعل ذلك؟

– ستقتل أخاك؟! ستقتلني في سبيل منصب فانٍ؟

– كلّه من أجل سجلماسة، من أجل شعبها.

– أوَلست أخاك؟ أوَليس لي عليك حقٌّ؟

– لن أقبل التّهاون والخطأ حتى من نفسي، أفأقبله منك أو أعذرك عليه؟! لم تدرك أنّ التّكليف مسؤوليّة مقترنة بالمحاسبة رغم أنّي حذّرتك مغبّة أمرك، وها قد جاء يوم حسابك ولم يبقَ لك إلّا الإذعان.

باحتلال سيوف الحقّ دار الإمارة دون إراقة أيّة قطرة دم حمدت الله وشكرته، وكان أوّل أمر أصدرته إيداع إلياس غرفة محروسة ريثما يُقضى الرّأي، ورغم أنّ بعضًا من أصحابي أوحوا إليَّ في حمأة الاقتحام بقتله على الفور، إلّا أنّي لم أرَ رأيهم وعارضتهم فيه، فقد كنت لأقتله لو أنّه أبدى مقاومة أو حاول صدًّا، أو لو أنّي اغتصبت السّلطة ضدًّا عن إرادة النّاس. لكن أما والنّاس بجانبي وفي ظهري فلا أتخوّف بقاء إلياس حيًّا، فهو أعجز من أن يمكر لنفسه أو أن يؤثّر في مجرى السّيل الذي جرفه.

ثمّ أغمدت سيفي وكذلك جنود الحقّ، وتلفّعت ببرنس والدي الذي كان في حوزة إلياس، ولبست عمامته البيضاء وخرجت إلى النّاس بتقاسيم مطمئنّة.

كان أهل سجلماسة كلّهم متجمهرين بباب دار الإمارة، يترقّبون من يطلع عليهم، ويبثّ الطّمأنينة واليقين في نفوسهم، فكبّرت ثلاثًا وبادرتهم:

"بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة على الرّسول الأمين، والعاقبة للمتّقين، ولا عدوان إلّا على الظّالمين. يقول الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1]، إنّ الجنس البشريّ مصاب برزيّة فادحة، لا يقيه منها إلاّ الإيمان والعمل الصّالح المُنجي، والتّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر، معطوفة أركانها على بعض، إن ضيّع أحدها ضاع ما سواه. وقد منّ الله على سجلماسة برجل كسمغو، آمن وعمل وصبر وأدّى حقوقنا عليه، وتركنا على أساسات صلبة لدين نقيّ زكيّ خالٍ من شوائب العنصريّة والتّعصّب، وإمامة شرعيّة تهدينا سبيلنا، وبذرة حضارة ومدنيّة ما علينا إلّا صونها والحرص على إنمائها. حتى إذا مات قلنا لا ينقطع الخير من سجلماسة بموته، وبايعنا إلياس، وانتقلت الأمانة إليه، فآمن حقّا كما آمنا، لكنّه ما عمل كما عملنا، إذ ليس العمل فقط الصّوم والصّلاة. وصبرنا عليه السّنين، ولم يطق على نفسه صبرًا فأتبعها هواها.

ويقول الله أيضًا: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾[2]، إنّ الرّجولة حفظ للعهد وقيام بالحقوق، فإذا تراجع الرّجل عن عهوده وتخلّى أو تهاون في القيام بما عليه من حقوق، فأيّة مزيّة تبقى له، وأيّة فائدة تُرجى منه، وعلى أيّ شيء يوثره النّاس على أنفسهم بالرّياسة والسّؤدد وهو أدناهم وأضعفهم وأضيعهم للأمانة

(١) سورة العصر.

(٢) سورة الأحزاب- الآية ٢٣.

والحقوق؟

ويقـول النّبي الكريم: {أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّـذِي عَلَى النَّـاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْـئُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُـلُ رَاعٍ عَلَى أَهْـلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْـئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَـيِّدِهِ وَهُوَ مَسْـئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْـئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ[1]} فمتى ما أخلّ المرء كيفما كان موقعه ومسؤوليّته برعاية من تجب عليـه رعايتهم، صار السّـؤال في حقّه واجبًا، ومحاسـبته على مـا ضيّع ضرورة للتّوازن وضمانًا لعدم الاختلال. فإن ضيّع الرّاعي الحقوق أنتركه حتى يسـأله الله ويحاسـبه؟ فـإن قال القائل: الله سـائله ومحاسِـبه، قلتُ: الله سـائلنا جميعًا، وعنده توفّى كلّ الحقوق.

إخواني، إنّ السّاكت عن الحقّ شيطان أخرس، وصاحب الحقّ المنفرد أحقّ بأخـذ حقّه إذا اسـتطاع إليه سـبيلًا، فكيـف إن كان حقّ أمّة مـن النّاس؟ حقّ شـعب سجلماسـة بأكمله؟ أرأيتم حين تركنا إلياس أربع سـنين دون مسـاءلة وحسـاب، ألم تفسـد الأرض؟ ألم تتعطّل التّجارة؟ ألم تضع حقوقكم؟ ألم يكثر بينكم الشّقاق والنّزاع؟ ألم تختلّ سنن الله في أرضه؟

إخواني، اعلموا وعوا أنّ الظّالم يَظلم فيُبتلى النّاس بفتنة تصيب من لم يَظلم، فيعجز عن ردّها حينئذ، بخلاف ما لو منع الظّالم ابتداءً، فإنّه كان يزول سـبب الفتنة.[2]

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم [١٨٢٩].

(٢) لابن تيمية. راجع: منهاج السنة ج ٤ ص ٣٢٣.

وكلّكم قد أصبح يعرف خصال إلياس، من خوار همّة وتلكّؤ وتردّد واعتزال لشؤون الحكم، حتى تحوّلت دار الإمارة إلى دير للرّهبان، واستهان بها الكبار والصّغار، وأصحبت سيرتها على كلّ لسان، ينقلها كلّ مسافر إلى بلاده، حتى ذهبت ريحنا وتشوّف إلينا الأعادي، وتعدّى على طرقنا قطّاع الطّرق، وفارقت قبائل جماعتنا. هذه سيرته وقد عرفتموها، وهذه حالنا وأنتم تعيشونها بعلقمها.

ألا إنّا قد قدّمنا إلياس فتراجع، وأعليناه فتسفّل، وكلّفناه فاتّكل، ونوّهنا به فخمل، وقوّمناه فزاغ، وسوّدناه فجار. وأوصيناه بالحقّ فلم يعدل عن انحرافه. فصار علينا لزامًا أخذ الحقّ المعطّل وإعطائه لوصيّه القادر على أدائه.

إنّ إلياس أخي، ابن أمّي وأبي، ولكنّ الرّجل المنصف من ينصف في حقّ أخيه وابنه وأمّه وأبيه ونفسه، ومن لا تأخذه في الحقّ لومة لائم، ولا يقبل فيه شفاعة شافع. وقد علمتم ولا أزكّي على الله أحدًا قولي الحقّ وصدعي به، وسعيي الصّادق في الإصلاح، وعلمتم عدالتي وشدّتي على رؤوس الظّلم والطّغيان، وخبرتم شجاعتي في الحروب، وعدم سكوتي على ضيم في حياة والدي وتحت عينيه. كما رأيتم كيف سعيت خلال هذه السّنين إلى محاولة رأب الصّدع، وموازنة الاختلال، وردّ العدى، حتى يئست وتيقّنت من أنّ هذا الأمر لن ينصلح إلّا بما انصلح به أوّله.

فإن كنتم لي دعمًا وسندًا كما كنت لكم دائمًا، التزمت بأن أقيم الحقّ والدّين لله، وبأن أصون الأمانة، وأن أجعل سجلماسة أغنى بلاد المغرب وأمنعها وأعظمها، وبأن أنشئ المصانع وأؤسّس الأسواق، وأن أنمّي التّجارة وأجعل طرق القوافل محروسة محميّة بأنجد الرّجال وأتمّ العتاد. وبأن أعيد القبائل الخارجة علينا إلى الطّاعة صاغرة، وبأن أضرب على يد كلّ مفسد ومتكبّر،

وبـأن أزيد في العمران، وأعيد لبلادنا هيبتها وأقطع آمال الطّامعين فيها، وبأن أعـوّض السّـنين السّـتّ الضّائعـة من عمـر سجلماسـة. اللّهم أرنا الحـقّ حقًّا وارزقنـا اتّباعه، وأرنـا الباطل باطـلًا وارزقنا اجتنابه. هذا اليسـع[1] الذي قد عرفتموه وهذا قوله، فامضوا إليّ ولا تُنظِرون».

مـا إن أنهيت خطابي ودعوت الله وصلّيت عـلى نبيّه حتّى هبّ نحوي عامّة أهل سجلماسـة جماعات وفرادى مبايعين مؤيّدين، وأمّا شـيوخ القبائل وأهل الحلّ والعقد فبايعوني بيعتهم الثّانية بعد انفضاض النّاس. أعاد إليّ هذا الإقبال الذّكـرى المشرقة لمشـهد بيعـة والدي، حين التـفّ النّاس عليـه وقلّدوه آمالهم وأهدافهم ورغائبهم، كان نفس الحبور والاطمئنان يشعّ من أعينهم.

***

الآن ولأوّل مـرّة بعد سـتّ سـنوات عجـاف أرى الخطّ المسـتقيم واضحًا أمامي، والذي سأسـير فيه كالسّـهم دون أن تنتابني رعدة أو يخالجني ارتعاش في سـبيلك سجلماسـة. سـأمضي في سـبيلك المقدّس بيقين المجاهد الصّليب، بعزم الزّطّاط[2] الجَلْد الحاذق، بشرف القائد لقافلة سجلماسة إلى العالم.

(١) كنّي اليسع بأبي منتصر كما هو عند البكري. أما عند ابن خلدون وصاحب الاستبصار وغيرهما فكنيته أبو منصور. راجع: البكري ج ٢ ص ٣٣٥؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢؛ الاستبصار ص ٢٠١.

(٢) لفـظ أمازيغـيّ يعني المؤمِّن أو الحافظ للأمن، وقد اسـتعمل اصطلاحيًّا للدلالة على الشـخص القوي المسلّح العازم، الذي يكلّف مقابل أجرة بقيادة القوافل وخفرها وتأمينها. وتعتبر الزّطاطة أو "تازطّاط" بأمازيغيـة بمـا لها مـن أهميّة كبيرة في مغرب ما قبل الحماية مهنة قائمة بذاتهـا. يطلق على الزطّاط أيضًا لفظ آخر هو بالمزراگ.

ستعرفكِ يا سجلماسة أدرار نْ درن[١]، ستختبر ما فيك من خيرات وأرزاق جبال فازاز[٢]، أمّا سواحل جبال غمارة[٣] ومراسيها المشرفة على البحر فستفيض ببركات من عندك. سيحلّق اسمكِ فوق بحر الزّقاق[٤] وسيعبره كالنّسور المهاجرة، وستردّده الألسنة في الأندلس وخلف جبال البُرْت[٥].

أمّا إلياس فرتّبت له مجلس قضاء جمعت فيه أهل الرّأي والحلّ والعقد، واختُلف في أمره اختلافًا عظيمًا، بين من يدعو لقتله وبين من يرى سجنه وبين من يقترح نفيه إلى بلد بعيد، وقد ملت بعد إمعان وتدقيق إلى الاقتراح الأخير، فإلياس لا يستحقّ نفس مصير عيسى بن يزيد الأسود، ليس لأنّه أخي أو ابن عصبيّتي، وليس لأنّي أشفقت على حاله أو تورّعت عن سفك دمه المهدور، بل لأنّي أعرفه، أعرف مداه وغوره، أعرف تخلّي النّاس عنه وكراهتهم له، وأعرف بيقين ضعفه عن تشكيل أيّ تهديد على مستقبل سجلماسة. فأشهدناه على نفسه بعدم العودة إلى سجلماسة، ونفيناه إلى إحدى الواحات الصّحراوية النّائية، حيث اعتزل الحياة وتنسّك إلى أن فارق الحياة دون أن يُدرى بأمره، فغفر الله له.

❊❊❊

(١) جبال الأطلس الكبير.

(٢) الأطلس المتوسط.

(٣) سلسلة جبال الرّيف.

(٤) يطلق الجغرافيون هذا الاسم على مضيق جبل طارق الذي يسمى أيضًا ببحر المجاز وبحر القنطرة، كما يأتي أحيانًا للتعبير عن الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط الواقع بين المغرب وإسبانيا، المعروف اليوم ببحر البوران. راجع على سبيل الاستئناس: نزهة المشتاق ج ١ ص ١٠؛ نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨؛ البيان ج ١ ص ٦؛ المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٢٢؛ مسالك الأبصار للعمري ج ٤ ص ٢٣٥؛ الروض المعطار ص ٢٩٤.

(٥) وتسمى في المصادر العربية أيضًا بالبرانس والأبواب (بالفرنسية: Pyrénées) (بالإسبانية: Pirineos). وهي سلسلة جبلية تقع بين إسبانيا وفرنسا.

الآن وقد صرت أمير سجلماسة وإمامها وحامل أمانتها، فإنّ ما يليق بي هو التّمنطق بالتّيقّظ، والتّشمير عن ساعد الجِدّ، وبذل النّفس والرّوح قبل العلم والعمل في سبيل ازدهارها وإلى آخر رمق. وأولى أهدافي ومراميَّ، المقدّم على كلّ عمل، نفث الرّوح في وريد سجلماسة وأهمّ أسباب ازدهارها، وأعني هنا المسالك الطبيعيّة الواصلة بينها وبين بلاد السّودان[1]، وتأمينها تأمينًا تامًّا بعد أن انقطعت وكثر فيها عيث المفسدين والمخالفين. ولم يكن هذا متأتّيًا لي ولا ممكنًا، وقد خبرت البلاد في السّنتين الماضيتين، وعرفت مكامنها ومقاليدها ومفاتيحها دون أن أوسّع نفوذي وسلطتي لتشمل واحات بلاد درعة[2] وقراها وممرّاتها على وجه الخصوص.

إنّ السّيطرة على درعة وضمّها إلينا ستضمن لنا مزيّة أمنيّة وموردًا مُهمًّا. فأمّا المزيّة فهي التّحكم في المناطق التي تأوي إليها قبائل صنهاجة، وخاصّة مسوفة في رحلة انتجاعها[3]، فنضمن بذلك مسالمتها ومهادنتها وبالتّالي التّحكّم في الطّريق نحو أودغست[4]. وأمّا المورد فهو مناجم النّحاس الواقعة بيننا وبين

(١) السودان جغرافيًّا هو المجال الواقع ما بين الصحراء الكبرى شمالًا والغابة المدارية جنوبًا والمحيط الأطلسي غربًا وبحيرة كوري شرقًا. وكان الكيان السياسي المسيطر على أغلب هذه المنطقة الجغرافية في الفترة التي نتناولها هو مملكة غانة.

(٢) ويتعلق الأمر بست واحات تمتد على حواف نهر درعة بطول ٢٠٠ كلم هي من الشمال إلى الجنوب: مزگيطة، تينزولين، ترناتة، فزواطة، اكتاوا، المحاميد. وبين سجلماسة وبلاد درعة ثلاث مراحل كبار حسب الإدريسي، أو مسير خمسة أيّام حسب البكري وصاحب الاستبصار. انظر: نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٦؛ الاستبصار ص ٢٠١؛ البكري ج ٢ ص ٣٣٣. وأمّا العمارة المتّصلة بهذا الإقليم فكانت على مسافة سبعة أيام حسب البكري ج ٢ ص ٣٣٨.

(٣) البكري ج ٢ ص ٣٣٣.

(٤) مدينة بالصحراء الكبرى (وسط موريتانيا الحالية) تقع على مسافة شهرين من سجلماسة، وقد كان للمدينتين علاقات تجارية مهمة. راجع: ابن حوقل ج ١ ص ٩٩؛ البكري ج ٢ ص ٣٤٤.

درعة، وخاصّة مناجم تيحمّامين[1].

ولم يكن تطويع هاته المنطقة نزهة أقوم بها أو عملًا أقدم عليه بمعرفة ساذجة وتخطيط مرتجل، كما لم أكن في نفس الآن ومع رهافة الموقف الذي وصلته التّجارة بسجلماسة مالكًا لرفاهيّة الوقت، فأسرعت بوضع الخطّة المناسبة، وتجهيز نخبة مختارة من أنجد فرسان مكناسة، وأكثرهم دربة وتمرّسًا في حرب الصّحراء، وصلابة على تحمّل نارها المشتعلة نهارًا وقرّها المميت ليلًا، وتوجّهت على رأسها نحو بلاد القبلة[2]، حيث تنشط القبائل الغليظة والجماعات العاصية، وبعد معارك وأهوال ومشاق وجلد استطعت إخضاعها واحدة تلو أخرى، وإلزامها الإذعان والطّاعة والسّكون[3]. وأمّا مناجم تيحمّامين فبعد أن ضممتها إلى نفوذنا وأمّنتها ومهّدت الطّرق الواصلة بينها وبين سجلماسة، قمت بإقطاعها لأهل الأمانة والحرفة والاختصاص في استخراج المعادن، وفرضت عليهم خُمس ما يتمّ استخراجه وصهره[4].

ضمنت لنا هذه الإجراءات مداخيل مهمّة وقارّة، أنعشت بيت المال، وأعادت لشعب سجلماسة الأمل في غد مشرق كشمس الصّحراء الساطعة. كما لم تكن بواكير أعمالنا لتتأخر طويلًا، إذ سرعان ما عادت القوافل لعملها ذهابًا وجيئة، وازداد عددها وتواترت حاملة معها إلى بلاد السّودان الأكسيّة، والألبسة الصّوفية، والأواني، والنّحاس المصنوع والمسبوك، والخزر الزّجاجيّ، والحليّ،

(١) تقع مناجم تيحمامين حسب البكري على بعد يومين في الجنوب الغربي لسجلماسة. وهي معروفة إلى اليوم باسم منجم تازلافت على مسافة ١٩ كلم غرب مركز النيف.

(٢) اصطلاح عام يطلق على منطقتي سجلماسة ودرعة وبلاد الصحراء. كما يستعمل للدلالة على جهة الجنوب. ويقابله مصطلح الجوف الذي يعني الشمال.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢.

(٤) البكري ج ٢ ص ٣٣٥.

والتّمور، والزّبيب، والحنطة، والملح، والحنّاء، وخشب الأرز والصّنوبر والبلّوط، وأصنافًا من البضائع والسّلع والمواد المتنوّعة، لتعود من رحلتها بعد أشهر حاملة في وطابها العنبر، والتّبر الذي كان من كثرته يباع جزافًا عددًا بلا وزن[1]، والذّهب الإبريز الخالص خيوطًا مفتولة، والعبيد السّودان وغير ذلك كثير.

***

استمرّت سجلماسة في النّمو والازدهار عامًا بعد عام، وقصدها التّجّار والصّناع المهرة وأهل الحرف الجيّدة والمهن المستطرفة من الجوف والشّرق والغرب، وصارت المدينة أنفق أسواق المغرب، وأصبح تجّارها بعد أن هجروها زمن إلياس أغنى التّجار. كما صار ما ينتهي إليها من البضائع والأطعمة والتّوابل والنّكهات والألوان والرّوائح من كلّ الأقاليم والبلاد، يلبّي كلّ طلب ويستجيب لكلّ ذوق. فسلع السّودان وسلع الصّحراء وسلع درعة وسلع جبال درن وسلع تامسنا، كلّها موجودة مستوفية.

نتيجة لهذا الازدهار المضطرد التي عرفته سجلماسة في وقت قياسيٍّ، صار لزامًا عليَّ العمل على توسعتها والحفاظ عليها مصونة واسعة متيسّرة المداخل والمخارج، وأعيّن لكلّ سوق منها محتسبًا وقاضيًا وعسسًا، يقيمون بالنّهار وآخرين يسهرون بالليل، ومع كلّ واحد منهم سراج معلّق وكلب يسهر وسلاح معدّ. هذا مع إضافة المرافق الأساسيّة لكلّ سوق، وإعداد الضّروريّ من المخازن والأهرية[2] والمطامير لحفظ الغلال وتخزينها، وبناء المزيد من الحوانيت للتّجّار والحرفيّين من صفّارين ونجّارين ولبّادين وحدّادين

(١) البكري ج ٢ ص ٣٣٧.

(٢) جمع هرّي. وهي المخازن الكبيرة المعدة لخزن الحبوب ونحوها. والمطامير: ومفردها مطمورة، مخازن جوفية.

وسـمّارين[1] وصيّاغـين وخرّازيـن وخيّاطـين ودرّازيـن وطرّافـين وفخّارين وعطّارين وعشّـابين وغيرهم[2]، كلٌ في سـوقه المخصوص بحرفته، لا يزاحمه فيه صاحب حرفة أخرى[3]. دون أن أُغفِل بناء الفَنادِق[4] الضّروريّة المخصّصة لإيواء التّجار الطّارئين والمسافرين الذين يزداد عددهم يومًا بعد يوم.

لا تجـارة دون نظـام واسـتقرار، ولا قوافـل دون أمن. كانت هـذه القاعدة القصـيرة ضمانًـا لازدهارنا، وقد عاهـدت نفسي أن أحافظ عليهـا وأكسر كلّ مـن يحـاول كسرها أو حتـى خلخلتها. ولم نكـن نعدم أمثال هؤلاء المفسـدين المتهوّرين الحمقى، السّاعين وراء الكسب الحرام مع تيسّر الحلال وكثرته. فمن وقت لآخر كان يظهر أحد رؤوس الفسـاد ومثيري الفتن والقلائل والشّغب،

(١) الحرفيّـون المختصـون فـي صنـع وتركيب حـدوات الـدواب والآلات الفلاحية الحديدية من سـكك للمحاريث والفؤوس والعتلات ونحوها.

(٢) توجد بأغلب المدن العتيقة أسواق لهاته الحرف المذكورة وغيرها.

(٣) وهـذه الأسـواق على شـكل الأسـواق التي ما تزال قائمـة إلى اليوم فـي المدن المغربيـة العتيقة كفاس وتطوان وغيرها.

(٤) مفردها: فُنْدُقْ. وهي بناية خدماتية تتكون غالبًا من طابقين، يوجَّه العُلوي لاستقبال التجار والمسافرين والغربـاء عـن المدينة، وتمكينهم مـن مجموعة من الخدمات كالمبيت والطعام، أما السـفلي فيخصص لإيواء الدواب والاعتناء بها وتخزين السلع. قامت الفنادق بالمغرب مع ازدهار المدن الكبرى وانتعاش الحركـة التجاريـة بهـا، ثم تطـورت مع الوقـت لتسـتوعب عمليات البيـع والشـراء والمقايضـة وإبرام الصفقـات، ومـع ازدهار التجارة آثـرت بعض الفنادق تحديد أنشـطتها في مجال معيـن، فتوجه بعضها للتخصـص في نـوع محدد من الأنشـطة التجارية كتجارة الزيت أو تجارة السـكر أو الرقيـق... واكتفى بعضها باسـتقبال الدواب أو الأنعام أو غيرها، فيمَ وجهت فنادق أخرى خدماتها نحو إيواء المسـافرين خاصـة، وهـذا النـوع الأخير يمكن اعتبـاره النواة التي سـتتطور لتصير الفنـادق التي نعرفهـا اليوم. هذا التطور الكبير التي عرفته الفنادق والدور المهم الذي لعبته بوأها منزلة مهمة بين المؤسسـات الخدماتية بالمغـرب لقرون طويلة وإلى حدود القرن العشـرين. وقد عرفـت فاس الفنادق منذ زمن مبكر جدًّا على أيدي الأدارسة حتى بلغت ٤٦٩ فندقًا زمن الموحدين كما يفيد ابن أبي زرع. أما في مدينة أخرى كسبتة فقد أحصى الأنصاري ٣٦٠ فندقًا في العهد المريني، وقس عليهما سجلماسـة المندرسـة التي للأسـف لا نملك أيّ أرقام بشأنها.

ويجمع حوله عصابات ممّن سوّلت لهم أنفسهم تقويض نظامنا وعرفنا بمهاجمة قافلة أو سلب مسافر أو قطع طريق أو ترويع آمن. وهؤلاء المعتدون الآثمون أواجههم بالبطش والجبروت والضّرب بيد لا ترحم ولا تلين، فأجرّد السّرايا للقضاء عليهم ومحقهم واكتساح ساحتهم، وإعادة الأمن وضمانه، وتعويض المتضرّر إن اعْتُدِيَ عليه داخل مجال نفوذي بما يرضيه ويطيّب خاطره.

بضِعف المؤاخذة والحزم الذي أبديه في مواجهة المخاطر البرّانيّة أواجه الدّاخليّة منها، فأنزل بالفاسدين والاستغلاليّين والمتلاعبين والمقصّرين في أداء واجباتهم ووظائفهم سيف العذاب وسوط التّنكيل؛ حتى يكونوا عبرة لمن خلفهم، فالوظيفة في نظري مسؤوليّة يتحمّلها المرء عن استحقاق وبكفاءة، وليست امتيازًا يُمتّع به قريب أو ريعًا يستفيد منه تابع، فمن أحسّ من نفسه ضعفًا فليستعفِ فنعفيه مشكورًا، وأمّا من ظنّها مشاعًا مُستسهلًا فأخلّ بواجبه، فحقّ لنا حينئذ تصييره مُثلة للآخرين.

وأمّا من لعب بهم الشّيطان وهم كثير فطمعوا في الرّبح السّريع- الذي لا تدخّل لي فيه ما دام يتقيّد بالنّظام المرسوم ويقف عند حدّ الشّرع والعرف- بغير وجه مشروع، إمّا بالتّلاعب في الأسعار، أو بالتّطفيف في الموازين، أو بالمضاربة، أو بالغشّ، أو بالاحتكار، أو بالرّبا، أو بتعاطي البيوع المحرّمة دينًا والمكروهة عرفًا والمضرّة بنزاهة التّجارة ونظامها، فإنّ الجزاء كان من جنس العمل، والمعاملة بنقيض القصد، أوّلًا بالتّشهير بهم حتّى تُعلم خلّتهم، وثانيًا بمصادرة أموالهم وتسييرها للزّيادة في عدد حوانيت الأسواق وصيانة مرافقه، وأخيرًا بمنعهم من التّجارة في أسواقنا جزاءً لهم، وتأديبًا لغيرهم من التّجّار.

وقد رتّبتُ على أهل الأموال من التّجّار ما يأمر به الشّرع، وما وصلنا من هدي الرّاشدين، آخذه منهم بعد النّظر بالعدل والسّويّة، دون ظلم ولا تجاوز؛

حتّى يأمنوا على أموالهم، وتنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم، ويأخذوا في تثمير الأموال وتنميتها واستثمارها، فيعظم الخير، ويدور المال دورته الطّبيعيّة، ويجري منه إلى بيت مال المسلمين ما نصرفه بحول الله في مصالح المسلمين وسدّ ثغورهم. هذا غير ما وظّفه عليهم الشّارع الحكيم من زكاوات أموال هم أعلم بمقاديرها وأوقات صرفها، وما جاد به كرماؤهم على المحتاجين من صدقات. والله يوفّق عباده لما فيه الخير.

ولأنّ أغلب النّاس تعوّد السّيبة والمَرَج، والعيش فوضى لا سَرَاة لهم، فقد أشاع عنّي بعضهم الصّرامة والشّدّة والصّلابة والتّشدّد، وقال آخرون: «اليسع جبّار من الجبابرة، عنيد كالصّخر ما ضرّه إن لان قليلًا، في اليسع حُزُونةٌ وعُسر خُلُقٍ وغِلَظةٌ وفضاضة[1]». وما بي من ذلك شيء يعلم الله، إنّما هو تقدير للأمانة والمسؤوليّة حقّ قدرها، وخبرة بطبيعة الصّحراء الجافّة القاسية التي لا تطُوع إلّا للقويّ والصّلب والخشن الماضي في أمره، وتلتهم اللّين والفَسْلَ والمترهّل والمتراخي.

إنّ قومي وأهل بلادي لا يسلمون قيادهم إلّا للمتين المرير، الصّارم الشّديد. وإنّي وإن كنت جبّارًا عنيدًا فظًّا كما قالوا، فمع المعتدين والمفسدين وأهل البغي والتّشغيب، لا مع الأبرار والمحسنين ذوي الرّشد والحكمة والاستقامة على الصّراط المستقيم، صراط ربّ العالمين.

الصناعة، العصب الثّاني بعد التّجارة من أعصاب الاقتصاد، لا يغفلها المسؤول الخبير ولا تخفى أهميّتها عن المخطِّط الحكيم، فبدونها لا تكتمل دورة الاقتصاد ولا تدور ناعورته دورتها الطّبيعيّة، وقد أنشأت خدمة وتشجيعًا لها

(١) البكري ج ٢ ص ٣٣٥؛ البيان ج ١ ص ١٥٧.

مجموعة مصانع[1] لمعالجة المعادن المختلفة، لصهرها وسبكها وتحويلها لمادّة قابلة للتّشكيل، ودعوت إليها أبرع الصّناع وأمهر الحرفيّين. ولم يكن الهدف الأسمى عندي احتكار هذا القطاع المهمّ، أو الاقتصار على تصدير هذه المعادن فقط، وإنّما الهدف هو تشجيع كلّ من كانت له حرفة يتقنها على إنشاء مصنع يساهم به في الإنتاج من جهة، ومن جهة أخرى في تعليم أجيال جديدة مبادئ الصّنعة وطرق الصّناعة. خاصة وبلادنا أغنى البلدان بالمعادن الضّروريّة في كلّ صناعة. فالحدّادون مثلًا سيجدون لصناعتهم ما يكفي من حديد، ولمصنوعاتهم كثيرًا من الرّاغبين فيها، سواء من الفرسان الرّاغبين في التّسلّح بالمتقَن من السّيوف الحِراب والدّبابيس، أو من الفلّاحين المحتاجين لمختلف الأدوات الفلاحّية من محاريث ومعاول وفؤوس، أو من عامّة النّاس، وما منهم إلّا راغب في باب لحانوته، أو شبّاك لمنزله، أو حدوة لدابّته، أو آلة يستعين بها على تسهيل شؤون حياته. وكذلك الحال مع صنّاع الأواني النّحاسيّة من نمارق وكؤوس وصواني، وكلّها مرغوبة مطلوبة في بلاد السّودان وغيرها، ولنا من مناجم النّحاس ما يلبّي الطّلب ويزيد. والأمر نفسه مع صنّاع الحليّ الذّهبيّة والفضّيّة خاصّة وقد أصبح من أهل سجلماسة الأغنياء والمترفون والمرفّهون، وأيّة علامة على الرّفاهيّة أكبر من التّحلّي بالذّهب والفضّة، وليس شيء أكثر بسجلماسة من التّبر والفضّة.

وكذلك الحال مع أهل الدّرازة والنّسيج، والطّلب متزايد من التّجّار والعامّة على الأكسية الصّوفيّة والقطنيّة والأردية الملوّنة. وقس على هؤلاء النّجّارين والفخّارين والدّبّاغين وغيرهم. فإذا أقبل كلّ صانع على صناعته وأجاد فيها وتفتّقت قريحة الحرفيّين وتنوّعت منتوجاتهم، ازدهرت التّجارة أكثر وأكثر، وصارت موارد الخير أكبر وأكبر.

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢.

بعـد أن أقـررت نظم التّجـارة وأدرت ناعـورة الصّناعة، لم يبـقَ أمامي إلّا الالتفـات إلى العصـب الثّالـث والأخـير مـن أعصـاب الاقتصـاد، ألا وهـو الفلاحـة، التي هي قـوام المعايش، ومادّة الرّزق، وسـبب العمارة، وحفظ بقاء النـوع[1] وقـوت النّفوس. والتي هـي كجميع الصّنائع فرض عـلى الكفاية في الغالـب، وفعـل ينبغي أن تكـون نيّة الفاعل فيه أنّه لا يقوم به عن نفسـه فقط، وإنّـما عن إخوانه المسـلمين بنيّة فرض الكفاية[2]، وقـد تصدّرت لهذا الواجب العظيم وندبت نفسي إليه لا كفاية بل فرضًا على من يحمل أمانة كأمانتي.

والفلاحـة عمـل شـاقٌّ التّجهيـز لـه، طويل الاشـتغال فيـه، وقد أخـذ منّا اسـتصلاح الأراضي وبنـاء السّـواقي وشـقّ الجـداول التـي تتخلّل البسـاتين كعروق اليد وتسـقيها بمياه وادي زيز المبارك، وجرّ المياه عبر الخطّارات[3] إلى الأرضي التي لا تصلها مياه الوادي سـنوات من العمل الدّؤوب، متمّمًا بذلك العمل المبارك الذي دشّنه والدي يوم وضع حجر الأساس لسجلماسة.

ولأنّ التّمكين على قدر المشقّة، فقد ضمنت لنا هاته الأعمال الجليلة التّموين الدّائم للأسـواق، وخلق علاقة التّكامل التي أردناهـا أن تكون بين حاضرتنا الذّهبيّة وباديتها المعطاء. وها هي سجلماسة اليوم بأرباضها السّهليّة وبساتينها

(١) مسالك الأبصار للعمري ج ٥ ص ٧٤.

(٢) انظر: مدخل ابن الحاج ج ٤ ص ٢.

(٣) وتعـرف أيضًـا بالفـوكارة والكظامـة. وهي عبارة عن شـبكة من القنـوات المائية تعمل علـى نقل الماء لمسـافات طويلـة باطنيًّـا لمنعـه من التبخر، وتكـون بأن تحفر سلسـلة خطية من الآبار تتصـل فيما بينها بأنفـاق تضمـن وصول الماء من أحد الخزانات الكبيرة، التي غالبًا ما تكون بإبط السلاسـل الجبلية، إلى الأماكن الجافة أو شبه الجافة بالجنوب المغربي. وهذا وفق مجموعة من الشروط والمعطيات الهندسية الضروريـة لنجـاح التقنية. ويكفي للدلالة على الدور الكبير الذي لعبتـه هذه التقنية في المناطق الجافة، أن مدينة كالعاصمة مراكش قد اعتمدت لقرون طويلة على مياه الخطّارات في حياتها وازدهارها. انظر: معلمة المغرب ص ٣٧٦٩؛ سجلماسة وإقليمها ص ٧٣.

الغنّاء أغنى المناطق، وأجودها غلالًا، وأرقاها بقاعًا، وأكثرها خضرة وجنانًا، وأوفرها ماءً، وأخصبها أرضًا، وأكثرها نخيلًا، وأحلاها رُطَبًا، وألذّها تمرًا وعنبًا وزبيبًا، وأندرها حنطة وشعيرًا، وأفخرها قطنًا، وأزكاها كمونًا وكرويا وحنّاء[1]. وحصول فوائد الفلاحة هاته وتَوفُّر الزّروع والكروم والثّمار وغير ذلك من أنواع الغلّات، كان وسيكون من ضمانات بقاء التّجارة لوجود بضائعها.

بجانب أنّ الفلاحة أعظم أسباب النّماء والازدهار فهي كذلك أكثرها أجرًا، إذ إنّ خيرها مُتعدٍّ للزّارع ولإخوانه المسلمين وغيرهم والطّير والبهائم والحشرات، كلّ ذلك ينتفع بزراعته. حتى إنّه ليقال لو سمع الزّارع من يقول: «نأكل منه حين زراعته» لم يزرع شيئًا لكثرة من يقول ذلك. فما في الصّنائع كلّها أبرك منها ولا أنجح إذا كانت على وجهها الشّرعيّ. وهي من أكبر الكنوز المخبأة في الأرض. لكنّها تحتاج إلى معرفة بالفقه وحسن محاولة في الصّناعة، مع النّصح التّامّ والإخلاص فيها، فحينئذ تحصل البركات وتأتي الخيرات إن شاء الله تعالى[2].

ولأنّ الفلاحة أيضًا علم لا يُؤتى إلّا من جهة معلومة، فقد ندبت ذوي الفقه والأهليّة فيها لتعليم كلّ راغب في تعلّمها طرائق الحرث والإفلاح والبذر والزّراعة والتّزبيل والغرس والإنبات والاستثمار والرّيّ وعلاج النّبات، عمارة للأراضي المعطّلة التي استصلحناها. كما حسمت الخلاف الحاصل في إحياء الموات بما رأيته مناسبًا لمقتضى الاستخلاف، بالقضاء أنّ كلّ من أحيا أرضًا مواتًا صار مالكًا لها بالإحياء والاختصاص. ولم أرتّب على أصحاب

(١) انظر: ابن حوقل ج ١ ص ٩١؛ نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٢٥؛ البكري ج ٢ ص ٣٣٣.

(٢) انظر مدخل ابن الحاج ج ٤ ص ٣.

هاتـه الأراضي من الخراج شـيئًا تشـجيعًا لهم عـلى عمارتها، إلّا مـا رتّبه عليهم الشّارع الحكيم من زكوات معلومة.

لم يكن بمقدوري بداعي التّعب أو الانشـغال بتوطيد الأمن في ربوع البلاد أو الانهـماك في وضـع الأسـس والتّنظيـمات إغفـال أكـبر واجباتي وأقدسـها، وأعنـي هنا وظيفتـي الدّينيّة كإمام للمسـلمين، يصلّي بهـم ويذكّرهم ويخطب فيهـم. ولا أخفـي أنّ أعـزّ أوقـاتي وأشـدّها وطأة وجلالـة، لم تكـن وأنا على كـرسيّ الإمارة أو في مجلـس القضاء أو حتى وأنا على صهـوة جوادي أحارب المفسـدين، بل تلك التي أقضيها فوق المنبر أخطب وأعظ وأعلّم النّاس دينهم وأحضّهـم على الـبرّ والتّقوى والخير والتّمسّـك بمذهبنا الدّاعـي إلى العدالة، النّابذ للعنصريّة وأشـكال التّمييز بين المسـلم وأخيه كيفما كان نسبه وعنصره.

إنّ خطب الجمعة أنجع وسيلة لتواصل الإمام بأفراد أمّته، لمناقشة الخطوب والنّـوازل معهـم، لسـماع تطلّعاتهم والإجابة عن تسـاؤلاتهم. كـما أنّها المجال الأكثـر مصداقيّـة لإعطـاء الـدّرس الأخلاقـيّ والتّوجيه السّـلوكيّ، لإعلان الضّوابط ورسـم الحدود التي عـلى الجميع التّقيّد بهـا واحترامها. وهذه قطعة مـن خطبة جمعة ألقيتهـا عقب اجتراح أحد الغافلين لجرم السّرقة بحجّة الجوع والعوز:

«...إنّ الله وضع حدودًا ونهى عن مجرد الاقتراب منها {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَـا[1]} فمن اجتنبها واقتفى الطّريق المنجور نجى وأفلح، وزاده الله غَنى وقوّة بإخوانه، ومن بغى وتعدّى خسر وخسئ، وكانت عاقبة أمره خُسرًا. فمن كان جائعًا أشـبعناه، ومن كان عاريًا كسـوناه، ومن كان مريضًـا عاجزًا أنفقنا عليه حتى تزول عنه إعاقته أو يتوفّاه الله، كلّ ذلك من بيت مال المسـلمين، لا

(١) سورة البقرة- الآية ١٨٧.

منّـة لأحـد في ذلك عليه، إنّما هو حقّه على أمّته وإخوانه وإمامه. لكنّا في المقابل مـن ذلك نقـرّر أنّ من سرق قطعنا يده، ومن اجترح جرمًـا أوقعنا به العقوبة، ومـن تعـدّى حـدًّا من حـدود الله جازيناه بما يسـتحقّ. لا صفح لـه عندنا ولا مغفرة ولا شـفاعة، ولا نظر لقرابة أو نسـب أو صلة، سواءٌ هم والمجرمون في العقاب والجزاء. دستورنا في ذلك كتاب الله، ومنهاجنا سنّة نبيّه الكريم...».

فاللّهـم ثبّتنـا عـلى العدل وأرنا الحـقّ حقًّا وارزقنـا اتّباعه. وأعذنـا ربّنا من الظّلـم، وجنّبنا التّفريط في حقوق من تسـألنا عنهم، وقِنـا فتنة الدّنيا وزخرفها ولهوها ولعبها.

***

اليوم، كلّ شيء في سجلماسـة يتحوّل بسرعة وثبات، فمن الفقر إلى الغنى، ومن الشّظف إلى البحبوحة، ومن الكفاف إلى الرّخاء. من التّرحال الرّعويّ إلى الاستقرار الزّراعي، ومن العمل المنجميّ المضني إلى الإنتاج الصّناعيّ المجزي، ومـن الانغـلاق المجـاليّ إلى الانفتاح التّجـاريّ الذي شرع أبـواب الصّحاري المعزولـة وبـلاد السّـودان القاصيـة عـلى كلّ الجهـات شرقًـا وغربًـا وجوفًا.

لا يصدّق أحد من زوّار سجلماسة وهو يسمع قصّة تأسيسها أنّ هاته المدينة المتّسـعة الخطّة الفسيحة السّـاحة، التي هي جنّة الصّحراء ودرّتها وسيّدة مدنها وبابها الذي يُدخل ويُخرج منه إليها، وشريانها الذي لا حياة تطيب فيها بدونه، كانت قبل بضعة عقود سـبخة يتّخذها الرّحل مكان اسـتراحة ولا يأوي إليها إلّا الوحيش والسّباع.

سجلماسـة اليـوم أسرع حواضر المغرب تطـوّرًا وازدهارًا ونموًّا واتّسـاعًا، وأكثرها جذبًا للمهاجرين والرّاغبين في الاسـتقرار بها من كلّ جهات المغرب

ونواحيه، وأقدرها على استيعابهم وصهرهم فيها، وتمتيعهم برزق طيّب ومسكن لائق ومستقبل مشرق. ولا أدلّ على جاذيّة سجلماسة للبرّنيّين من كثرة أرباضها، ورفيع دورها، وسريّ مبانيها، واستفحال العمران بها. حتى إنّ مدنًا كان لها شأن كترغة وزيز[1] قد خلت بعمارتها وانتقال أهلها نحو سجلماسة.

سجلماسة الصّدر المفتوح، سجلماسة الوطن. أهلها أكرم النّاس أخلاقًا، اجتمع فيهم من مكارم الأخلاق ما تفرّق في غيرهم، فيهم إكرام للضّيف، وإيناس للغريب، وإحسان له وقيام بحقّه، فلا تسمع عن غريب استوحش بينهم، أو عابر ذمّهم بعد الانتقال عنهم. وهم إلى ذلك سراة مياسير، يباينون أهل المغرب في المخبر والمنظر، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسماحة ورجاحة[2].

مفتون أنا بسجلماسة، شديد الوله بها، فهي مدينتي ومسقط رأسي، وهي أمانة والدي وهديّتي للعالم أجمع. لا أكفّ عن الزّيادة فيها وتعميرها بما يزيّنها ويجعلها سيّدة مدن الإسلام.

فمن القصور شيّدت بها ما يجلّ عن الوصف إتقانًا وبهاء، ومن الحمّامات الحِسان أقمت بها ما يخلو به المرء بسمّاره ويطيب له الاستجمام. وأمّا المساجد فبكل جهة منها مسجد، يتوسّطها المسجد الجامع، الأيقونة التي اجتمعت فيها دقّة المهندس وبراعة الصّانع وفنيّة الحرفيّ، فجاء بحمد الله في غاية الإتقان والإجادة[3].

(١) البكري ج ٢ ص ٣٣٢.

(٢) ابن حوقل ج ١ ص ٩١.

(٣) البكري ج ٢ ص ٣٣٢؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢.

لا أدري أيمكـن الاطمئنان لقول الذين يعتبرون طفرة سجلماسـة السّريعة ونموّهـا المضطـرد وغـزارة الخـيرات وفيضانها عليها من بشـائر فألي الحسـن وطالعي الميمون وحظّي الخارق؟ أم لقول آخرين يعتبرون كلّ ما حقّقناه بسبب زوال شـؤم إليـاس وشِـقوته، بدليل أنّهـا لم تبدأ إلّا بعد انتهـاء عهده وغروب شمسـه البـاردة؟ لكنّ ما أدريـه يقينًا أنّ النّـاس ما داموا يفكّـرون بهذا المنطق القاصر فإنّهم سيسـتمرّون في قول وظنّ ما شـاءوا حتى لو ألجمتهم بلجام من حديـد. أمّـا أنا فقد وهبت نفسي لخدمتهم بغضّ البصر عمّا قالوه وسـيقولون، وجعلتُني حجّة على كلّ واحد يأتي من بعدي، ودليلًا على أنّ الإنسان لا يحصد إلّا ما زرع، فإن زرع خيرًا وسـقاه بعرقه وراحـة بدنه ومزاجه ودمه إن اقتضى الحـال، فـلا بدّ وأن يجني ضعفـه فلاحًا ونجاحًا ونصرًا ومفـازة. وأمّا إن زرع كسـلًا وإهمالًا وفتور همّـة، فلن يجني إلّا المذلّة والبوار والخسـارة والرّزيّة. أمّا الشؤم فلا يُدينه إلّا يائس، وأمّا الحظّ فلا يتّكل عليه إلّا كسول.

***

اليوم وبعد هذه السّنين الطّويلة من تحمّل الأمانة، صار بمقدوري- بعد أن أخذت بكلّ الأسـباب الضّامنة لرفاهيّة شعبي واستقرار حاضره والاطمئنان على وضعه على سـكّة الازدهار- الالتفات لمسـتقبله والتّخطيط لغده، بإعداد الخلف الأمثل من بين أولادي لتحمّل الأمانة واستلام زمام القيادة. ومن بين كلّ أولادي مدرار أشـبههم بي صورة وجسـمًا، ولإن كان مدرار مفتقرًا لكثير من صفاتي كالحزم والشّـدّة والصّرامة، فإنّي لم أجد فيه حاجزًا يحجزه عن تولّي الإمارة، إذ ليس الشّرط في خليفتي أن يكون صورة طبق الأصل منّي، إذ تكفي المناسبة وإجماع النّاس عليه. ومدرار وإن لم يرث منّي ما ذكرته من صفات، فإنّه ورث عن جدّه سـمغو الصّلاح والاستقامة والسّمت الحسن، وامتاز عن بقيّة

أقرانه في ميادين القتال بالشّجاعة والتّجربة، كما تمتّع بذكاء ونباهة لا تخفى. إلّا أنّ عيبه الذي يخوّفني عليه رقّة قلبه، وغلبة عواطفه عليه، ونزوعه نحو اللّيونة حتى في مواطن الخشونة. وقد رأيت أنّ تكليفه ببعض المسؤوليّات سيصقله، ويكسبه رباطة الجأش وحدّة الرّأي الضّروريتين لمن يعدّ للحكم. كما رأيت أنّ في تزويجه من امرأة مناسبة تدعمه وتسنده وتقف إلى جانبه شامخة ما يعينه على رقّة قلبه تلك، على أن تكون ذات حسب، ترجع في نسبها إلى قبيلة عزيزة تكون له سندًا وبطانة بعد موتي، وقد بادرت إلى اختيار إحدى بنات شيوخ مكناسة الكبار وفرسانها الأبطال وزوّجته إيّاها. فاللّهم اجعله لسجلماسة خير أمير وإمام.

من الأمور التي على الحاكم أن يرعاها ويعطيها حقّها علاقة بلده مع غيرها من بلدان، خاصّة المجاورة لها، والتي لا يحجزها عن بلده حاجز طبيعيٍّ صعب الاختراق كالصّحراء التي تفصلنا عن مملكة غانة[1]، أو كالجبال الشّامخة التي تفصلنا عن مملكة إدريس بن إدريس وعن برغوطة، أو كالبحر الفاصل بيننا وبين المتغلّب على بلاد الأندلس. وذلك بأن يستأصل مسبّبات العداوة والخصومة، ويتحاشى التّدخّل في شؤونها الدّاخلية، ويعمل على إبراز المشترك وتقوية الرّوابط القائمة بينها وبين بلده أو ينشئ معها روابط جديدة تضمن له حليفًا صادقًا يقف إلى جانبه وقت الضّيق، أو جارًا حسنًا يكفيه شروره وبوائقه على أقلّ تقدير. كما عليه في ذات الآن ألّا يطمئنّ للبرانيّ كيفما كان، وإن أظهر له الصّفاء والنّصح، فعليه أخذ الحذر وإكثار العسكر، وملء الثّغور بالرّجال، والأخذ بكلّ أسباب الدّفاع وحِمى الذّمار، وإظهار القوّة ووحدة الصّف لكلّ

(١) إحدى أشهر إمبراطوريات السّودان الغربي القديمة، نشأت حوالي القرن الثالث أو الرابع الميلادي، وعاصمتها كومبي صالح. كان لها دور كبير في التجارة العابرة للصحراء تجاه سجلماسة، حتى سميت بمملكة الذهب. سيطر عليها المرابطون منتصف القرن الخامس الهجري لفترة قصيرة وحوّلوها إلى الإسلام، قبل أن تتفكّك الإمبراطورية وتزول سياسيًّا حوالي منتصف القرن السابع الهجري. راجع: البكري ج ٢ ص ٣٦٢.

ناظر إليه من الخارج. وإلّا استبيحت بيضة بلاده وطمع فيها الطّامعون، سواء أكانوا جيرانًا أو مغامرين أو حتى بدوًا متوثّبين على الملك والرّياسة.

وقد حظيت بلادنا بأكثر من جار، فأمّا الأدارسة وهم أكبر هؤلاء وأشدّهم شوكة وأكثرهم عدّة وعصابة، وأجهرهم بالطّمع في المغرب وأرغبهم في السّيطرة على كامل نواحيه، فبيننا وبينهم جبال ووهاد تعزلنا عنهم، كما لهم هوى شرقيًّا يصرفهم عن الالتفات لجهة بلاد القبلة، وأعداء ومتآمرون يشغلونهم عنّا ويبقونهم في اشتغال وحرص مستمرّ، فكفانا الله شرههم وكفاهم انتقامنا.

وأمّا برغواطة وإن كانوا أهل شوكة وكثرة، فإنّ حاكمهم رجل[1] زاهد عفيف ورع، لا طمع له في التّوسّع ولا غاية له في شنّ الحروب وإنشاء العداوات، إنّما غرضه العيش عيشة هادئة مطمئنّة في بلاده الخصبة الغنيّة.

وأمّا أتباع العباسيّين بإفريقيّة الأغالبة، فبيننا وبينهم مراحل ودول تجعلنا في منأى عن التّعاطي معهم أو الاحتكاك بهم، وقد اختار والدنا رحمه الله سياسة الابتعاد عن إشهار سيف العداوة في وجه العبّاسيّين أو أيّ من ممثّليهم طيلة ولايته[2]. كما قرّرت أنا ألاّ أصطفّ بجانب أيّ من أعدائهم، فكان عدم تدخّلهم في شؤوننا وعدم عرقلتنا لسياساتهم مرضيًّا لكلينا.

وقد وضعت أسسًا واضحة لعلاقة بلادي مع هؤلاء جميعًا، وهي ألّا أقطع صلّة بهم ما لم يقطعوها، وألّا أكون المبادر نحوهم بأيّ عدوان،

(١) إلياس بن صالح بن طريف (١٧٧/ ٢٢٧) ثالث ملوك برغواطة.

(٢) ويذكر ابن خلدون أن سمغو دعا أثناء ولايته للخليفتين العباسيين المنصور والمهدي. وحتى لو صح ذلك فيجب ألّا يفهم منه وجود سيادة أو حتى تبعية، بقدر ما يمكن اعتباره تقية ومناورة سياسية قام بها بنو واسول تماهيًا مع ظروف معينة. راجع: ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٥.

وألّا أحاربهم إلّا إن دفعوني لذلك دفعًا، وأن أهادنهم وأظهر لهم الودّ ما هادنوا بلادي ولم يهدّدوا مصالحها أو يعتدوا على أحد من أفراد شعبي.

وأمّا تاهرت[1] فهي أقرب المدن إلينا، ودولة بني رستم أقرب الدّول إلينا نظامًا وسياسة ومذهبًا ومزاجًا وطبيعة، وليس بيننا وبينهم إلّا الودّ والوفاق والاحترام والمسالمة وحسن الجوار. وبما أنّ المصاهرة أقوى الرّوابط التي تربط بلدًا ببلد أو دولة بدولة أو قبيلة بقبيلة، فقد رأيت أن أمدّ هذا الرّابط بين دولتنا ودولتهم، وقد شجّعني ما سمعته عن إحدى بنات عبد الرّحمن ابن رستم[2] واسمها أروى من حكمة ونجابة وحسن رأي على أن أمضي فيما نويت. فبعثت بكتاب إلى أخيها عبد الوهّاب[3] وخطبتها منه لولدي مدرار، فلقي طلبي من إمام تاهرت القبول والتّرحيب بمدّ جسر متين كهذا. وبعد عقد القران وبناء مدرار بها، اطمأننت لضمان صديق وفيّ وحليف صادق لبلادي وشعبي وخليفتي.

***

الآن وقد حلّ عام تسع وتسعين ومائة، وقطعت شوطًا طويلًا في مسيرتي نحو بارئي، وأيقنت اقتراب أوان رحيلي، صار بمقدوري الالتفات ورائي لأوّل مرّة والتمعّن فيما أعانني الله على إنجازه طيلة سنوات حملي للأمانة، والقول بيقين ورضى واطمئنان أنّي قد أدّيت حقّي وقمت بواجبي، ولم يبقَ أمامي إلّا تنفيذ المشروع الكبير الذي طالما حدّثت به نفسي وعزمت عليه، والذي لولا قلّة الإمكانيّات الضّروريّة، وانشغالي فيما دهمني من مهمّات،

(١) تاهرت أو تيهرت، هي مدينة تيارت شمالي الجزائر، كانت عاصمة للدولة الرستمية الإباضية.

(٢) عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بتاهرت عام ١٦٠هـ، عرف بالعلم والتقوى والعدل والسيرة الحميدة. توفي عام ١٧١هـ.

(٣) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ثاني الأئمة الرستميين، بويع بعد وفاة والده عام ١٧١ هـ، عرف بعلمه ودهائه وقوة شكيمته. توفي عام ٢٠٨ هـ.

وتسبيقي لأمور رأيت أنّها أولى وأعجل ما كنت لأؤجّله كلّ هذه السّنين. أمّا الآن، وقد امتلأت خزائني مالًا حلالًا طيّبًا ممّا اكتسبته من التّجارة التي أدرتها والصّفقات التي عقدتها، ومن القطعان التي ورثتها عن والدي ونمّيتها حتى تضاعفت أعداد رؤوسها، فقد صار المشروع ممكنًا من ناحية التّمويل، ومتاحًا من ناحية الحرفة لتوفّر سجلماسة اليوم على أمهر المهندسين والحجّارين والبنّائين، ولا يحتاج منّي الشّروع فيه إلّا لخلوص النّيّة وسلامة القصد، وهما موجودان بحول الله.

لم تعد سجلماسة مجرّد هضبة يسكنها البدو، كما لم تعد دورها بالحقيرة المتواضعة كما كانت. أمّا سكّانها فليسوا من الأجلاف والبدو المستقرّين حديثًا، بل إنّ بالمدينة من التّجّار والأعيان الكثير، ولهؤلاء من الأموال والتّحف ما يجلّ تقديره وعدّه، وهذه أمور بلا شكّ ستجلب إن عاجلًا أم آجلًا نحونا الطّامعين والغزاة والمغتصبين لحقوق النّاس بغير وجه مشروع. وبقاء سجلماسة دون سور يحميها في حالة ما دهمها عدوّ أو اضطرت للتّحصّن والدّفاع عن نفسها، سيخلق حتمًا لدى السّكان وخاصّة التّجار وأصحاب المصالح منهم نوعًا من التّوجّس والقلق المزمنين.

من هذا المنطلق الظّاهر الذي هو المصلحة العامّة، قرّرت تسوير سجلماسة بسور يحميها ويبثّ الطّمأنينة في نفوس أهلها. سور يكون بناؤه صدقة جارية لي ولأرواح آبائي. ولتمام هذه النّيّة وخلوصها، عاهدت نفسي على الإنفاق عليه من حرّ مالي وطيّبه، وألّا أمدّ إلى بيت مال المسلمين يدًا ولا آخذ منه درهمًا. كما وقفت أمام محاولات من أرادوا الاشتراك معي في هذا الخير الكبير والمشروع الجليل موقفًا رافضًا، ولم آخذ من أحد درهمًا ولا دينارًا. فاللّهم أعنّي على تمامه واجعله خالصًا لوجهك الكريم.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى جمعت المهندسين وأوكلت إليهم بدارسة المشروع، ثمّ بدأت القياسات والتّحديدات، وعُيِّنت الدور التي يجب إزالتها لعدم موافقتها لشكل السّور وهيئته. وقد كانت أعمال القياس والمعايرة فرصة جيّدة لإعادة تخطيط المدينة وفق ما يتوافق مع عمليّة التّسوير الممتدّة على طول حافّة الهضبة التي بنيت عليها، لاستغلال الحصن الطّبيعيّ الذي توفّره حافّتها[1]. وكذلك تقسيم الأحياء حسب أمكنة الأبواب والأبراج التي ستتوزّع على طول السّور. وبعد أن حددنا طول السّور وارتفاعه ومواد بنائه ومدّة إنشائه وعدد الأبواب التي ستتخلّله والأبراج التي ستحرسه، أمرت أهل سجلماسة- منطلقًا من رأي أهل الاختصاص- بإخلائها وسكنى الأرباض حتّى يتمّ السّور.

بدأت الأعمال بحفر الأساسات التي دعمناها بالصّخر الصّلب المجلوب من الجبال القريبة وضفاف الأودية، ثمّ أقيمت الجدران في جزئها السّفليّ من الحجارة الكبيرة، وفي جزئها العلويّ من الطّوب و الطّابية[2]

(١) راجع: سجلماسة وإقليمها ص ١٠٤.

(٢) تقنية في البناء تكون بإفراغ التراب في قوالب خشبية على ارتفاع السور ودكه حتى يصير جسمًا واحدًا، وقد وصف ابن خلدون هذه العملية في مقدمته: (...ومنها البناء بالتراب خاصة، تقام منه حيطان بأن يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربع أذرع في ذراعين، فينصبان على أساس، وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر بلوحين آخرين صغيرين، ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس، ويركز بالمراكز حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه، ثم يزاد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً. ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الأولى، ويركز كذلك إلى أن يتم وتنتظم الألواح كلها سطراً فوق سطر، إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحماً كأنه قطعة واحدة، ويسمى الطابية وصانعه الطواب) المقدمة ج ٢ ص ١٠٤. تنتشر هذه التقنية في سائر جهات المغرب وبها بنيت جل أسوار المدن المغربية وقصباتها خاصة في المناطق الجنوبية نظرًا لصلابتها وتكيفها مع المناخ، فهي باردة صيفًا دافئة شتاء. ولا تزال التقنية حية مستعملة إلى اليوم بالكيفية التي وصفها بها ابن خلدون مع تحديث بعض الأدوات والاستعانة ببعض الآليات في الأعمال الكبرى.

حسب ما تقتضيه ضرورة البناء[1]. وبالموازاة مع أعمال البناء أرشدت الحدّادين والنّجّارين إلى صنع أبواب متقنة الصّنعة ليتمّ تركيبها في أمكنتها ما إن يتمّ إعمار أحد الأبواب الاثني عشر[2] المخترقة للسّور[3].

بانتهاء السّور أصبح لحاضرتنا الجميلة شكل قلعة شامخة من الخارج، تحرسها أبراج عالية وثمانية أبواب حديدية وأربعة خشبية كبيرة[4]، وتحيط بها جنّات من النّخيل الباسق وبساتين من الزّرع والنّبات المخضرّ اليانع. ومن الدّاخل وجه حسن ونفس طيّب وهواء لطيف. فنحن لم نشيّد هذا السّور الضّخم بهدف حماية الحاضرة من خطر الأعداء والطّامعين ومراقبة الطّرق المتفرّعة منها والمؤديّة إليها فقط، وإنّما لصونها من أكبر عدو لساكن الصّحراء، ألا وهو المناخ القاسي. فالسّور مبني بموادّ مرطِّبة، تمتصّ سَموم الصّحراء القاحلة وقيظها الشّديد، وتحوّله دفئًا لذيذًا ليلًا. كما تمتصّ زمهرير اللّيل وتحوّله إلى هواء منعش نهارًا، كما أنّ السّور يصدّ الرّياح الصّرصر العاتية، ويردع العواصف الصّحراويّة المدمّرة.

استمرّت أعمال البناء قرابة عام كامل، وبتمامها على رأس المائة الثّانية للهجرة النّبويّة سمحت للنّاس بالعودة إلى المدينة وسكناها من جديد، بنظام يحترم التّخطيط المضبوط من حيث فصل الأحياء السّكنية عن الأسواق التّجارية والتّجمعات الصّناعية والحرفيّة، ويراعي التّقسيم المحدّد الذي يضمن

(١) البكري ج ٢ ص ٣٣٢. كما يذكر المقدسي (المتوفى حوالي عام ٣٨٠هـ) أن سورها مبني من الطين. أحسن التقاسيم ص ٢٣١.

(٢) البكري ج ٢ ص ٣٣٢.

(٣) أورد المقدسي أسماء أربعة منها هي: باب القبلي، باب الغربي، باب غدير الجزارين، باب موقف زناتة. أحسن التقاسيم ص ٢٣١.

(٤) البكري ج ٢ ص ٣٣٢.

حقوق جميع أطياف سجلماسة أمازيغَ وسودان ويهودَ وأجانب وردوا عليها من مناطق بعيدة للتّجارة والمشاركة في إعمارها ونموّها وازدهارها. ويضمن كذلك حضور سائر القبائل المؤسِّسة بها، بشكل لا يطغى على وجود قبيلة على أخرى، ولا يخلّ بحقوقها أو يؤدّي لأيّ صدام أو نزاع بينها. فالحمد لله ذي الطّول والتّأييد، على توفيقنا وعوننا وتسديدنا والتّأليف بين قلوبنا.

بعد عامين من استقرارنا بسجلماسة، وصلتنا أصداء ثورة عارمة قامت بربض شقندة بالعدوة القصوى لقرطبة[1]، على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن[2]، احتجاجًا على توظيفه المكوس الباطلة وخلوده لحياة المجون والإسراف، كحال أسلافه حين جاروا علينا في بلادنا حتّى خلّصنا الأبطال منهم. وقد أزعجنا ما سمعناه عن عمليّة التّقتيل التي اقترفها الحَكم في حقوقهم، وتمثيله بهم صلبًا وفيهم العلماء والأتقياء دون مراعاة لإلٍّ ولا ذمّة. وراعني كيف أنّ الأندلس عدمت رجلًا رشيدًا يخلع هذا الماجن ويوقفه عند حدّه، ويعمل على إصلاح ما أفسده دفاعًا عن الحقّ وحقنًا لدماء المسلمين. فاللّهم أجرنا من عاقبة الظّلم والطّغيان. ثمّ وصلتنا أنباء تشريدهم وطردهم

(١) ثورة الرّبض، هي ثورة شعبية عامة قام بها أهل ربض قرطبة على الحكم الربضي لجوره وفسقه، والتي كادوا يظفرون به فيها قبل أن يحتال لأمره ويوقع بهم مقتلة شنيعة يوم (١٣ رمضان ٢٠٢ / ٢٥ مارس ٨١٨)، أباح بعدها ربضهم لجنوده ثلاثة أيام قتلوا ونهبوا وأتوا كل قبيح، ثم صلب ٣٠٠ رجلًا من أعيانهم، واختتم ذلك كله بهدم ديار الربض كله ونفي أهله، فغادروا بأولادهم وأهليهم فرادى وجماعات، فقصدت جماعة منهم طليطلة لمخالفتها على الحكم، وعبرت طائفة إلى المغرب، وتوجهت طائفة إلى المشرق ونزلوا بالإسكندرية، وهؤلاء استطاعوا فيم بعد تأسيس إمارة إقريطش الصغيرة في جزيرة كريت عام ٢١٢/ ٨٢٧. ويعد ابن الأثير (الكامل ج ٥ ص ٤٦٢) أوسع من تحدث عن هذه الثورة وملابساتها وأسبابها الموضوعية، وتحدث عنها غيره كثيرٌ.

(٢) الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الملقب بسبب هذه الوقعة بـ"الربضي" (حكم ما بين ١٨٠-٢٠٦هـ)، ثالث حكام الإمارة الأموية بالأندلس، كان قويًّا طاغيًا شديدًا على كل من عارضه، محبًّا للبذخ والإسراف، ميالًا إلى اللهو، ولعل أكثر ما يميز فترته كثرة ما قام ضده من ثورات.

خـارج الأندلـس، وكيـف أنّ طائفـة كبـيرة منهم جـازت إلى العـدوة المغربيّة واسـتقرّت بمدينة فاس، حيث استقبلها إدريس بن إدريس العلويّ، وأقطعها قطعة أرض كبيرة صيّروها مدينة تعرف باسـمهم. وقـد بقيت أخبارهم تردنا باستمرار إلى أن وصلنا فوج منهم بعيالهم، طالبين الإذن للاستقرار في حاضرتنا، فاسـتقبلناهم وأكرمناهـم وأقطعناهـم ناحية مـن المدينة عمّروها وسـكنوها، وسرعان ما اندمجوا في حياة سجلماسة وتطبّعوا بطبعها وصاروا جزءًا منها[1].

إنّ تحـرّي الجمال في عمران المدن وتخطيطها، يمحـو عن الطّبع دمامته وعن النّفس توحّشـها، كما يضفي على حسّ الإنسـان سماحة، وعلى أخلاقه ملاحة، ويكسـبه مزاجًـا معتدلًا وذهنًـا مبدعًا، فالله لم يخلق للإنسـان معـدة فقط، ولم يجعل له عقلًا ليفكر به في كيفية إشـباع بطنه وسـدّ رمقه فقط. بل خلق له عينًا وقلبًا وروحًا ومشاعر تتبدّل وتتقلّب بسرعة واستمرار. هذا ما أدركته بعد كلّ هذه السّنوات، بعد أن خالطت أهل الحواضر، ورأيت من أخلاقهم وصفاتهم العجب، وبعد أن صُقلت نفسي وشُـذّبت طبائعي، وبعد أن تحوّلنا من البداوة إلى المدنيّة، وتسنّى لي أن ألاحظ كيف أنّ كثيرًا من النّاس لم يكونوا يعرفون إلّا البيداء والفوضى والهـرج والمرج، وها هم اليوم وقد أصبحوا هادئين منظّمين حُلماء منبسطي الأسارير ليّني الطّباع.

مـن المهم بـل من الواجـب على الحاكـم التّفكـير في كلّ الوسـائل الضّامنة لحاجـات شـعبه المتّصلة بقوتهـم ومعاشـهم، إلّا أنّ إشـباع الجانـب الرّوحي وتنميته بتوخّي الجمال في المبني والمغروس والمصنوع والمسموع، ومحاربة القبح

(١) لا تذكـر المصـادر وصول فوج من هؤلاء الربضيين إلى سجلماسـة صراحـة، إلا أن البكري قد ذكر في تأسيس سجلماسة رواية تفيد بأن مدرار كان حدادًا من ربضية الأندلس، ورغم أنه ضعّف هذه الرواية إلا أن في وَسْم مدرار بالربضي دلالة يمكن الاستنباط منها وجود طائفة من الربضيين استوطنت سجلماسة خلال هذه الفترة. انظر: البكري ج ٢ ص ٣٣٤؛ الاستبصار ص ٢٠١.

والعشوائيّة والبذاءة أوجب وأولى.

كرّست السّنين التّالية من حياتي لجانب أعترف أنّي طالما قصّرت فيه وشغلتني عنه الشّواغل المتلاحقة، وركّزت عليه وانكببت عليه، وأقصد هنا جانب التّربية والتّعليم، خاصّة النّشء الذي ولد وتربّى بسجلماسة. ولأجل هاته الوظيفة اللّازمة عيّنت جماعة من أهل العلم، وكلّفتهم بتحفيظ الجيل النّاهض القرآن، وإطلاعه على السّنّة النّبويّة ومبادئ العدالة والإنصاف التي قامت عليها مدينتنا وإمامتنا، حتى يتحصّل لسجلماسة جيل عالم عامل مجتهد نشيط، مستعدّ لحمل الأمانة والدّفاع عنها بالحماس اللّازم والجدّيّة المرجوّة. مع تدريب الموهوبين وذوي الملكات والكفاءات الفطريّة منهم والعناية بهم؛ كيلا تضيع مواهبهم نتيجة للإهمال وسوء التّوجيه. وجعلت ذلك كلّه راجعًا إلى نظري ومراقبتي.

وبجانب ذلك خصّصت خطب الجمعة لتهذيب الأرواح. وأقمت مجالسَ معلومة، جعلت بعضها خاصًّا بتحديث الجيل بمسموعاتي عن والدي، وجعلت أخرى خاصّة بالدّعوة إلى الاستمساك بمكارم الأخلاق الموروثة عن الأجداد، كالشّجاعة والكرم والإيثار والمروءة والصّدق والحياء. وأمّا أغلب المجالس فكانت متّجهة نحو همّ كبير هو تشذيب الأرواح وتربية النّفوس، ووضعها في سياقاتها المثمرة، مع الإلحاح على التّحلي بطيّب الصّفات والمواظبة على محاسن الأعمال.

وقد وجدَتْ نفسي خلال هاته السّنوات القليلة الماضية راحة عارمة، وسكونًا وصفاءً كاملين، وحلاوة لا يذوقها إلّا من خبت شهوة الحياة في نفسه وأدرك قرب مفارقته لسجن جسده الضّيّق، مع يقين عميق ببراءة ذمّتي وأدائي لحقوق النّاس عليّ.

اليـوم، لم يبـقَ أمـام الفارس المنطلـق فوق فرسـه الجامح مخترقًـا عواصف الصّحـراء وزوابعها، ومحاربًا غيلانها المتوحّشـة في الفيـافي المقفرة إلّا الارتجال عن فرسه، لم يبقَ أمام النّخلة السّحوق الضّاربة أطنابها في الأرض الحَرّة إلّا أن تمرُق طلعها وتسـتعدّ لاسـتقبال البُرت[1]، لم يبقَ أمام هاته الأصابع التي طالما حملت السّيوف والقسيّ والدُرق والرّماح صبر على رعشة واهتزاز.

قيـام وركوع وسـجود، قراءة ودعـاء وقنوت، هكذا أمضيت تلـك اللّيلة، وبعـد أن أذّن الفجـر صلّيـت في المسـجد وبقيت فيـه أذكـر الله إلى أن طلعت الشّمس، ثمّ قمت واغتسلت وتطيّبت ولبست الأبيض من ثيابي ورجعت إلى الجامـع. اجتمع النّاس كعادتهم في الجامع للصّلاة، أذّن المؤذن لصلاة الجمعة. بمشقّة ووهن ارتقيت المنبر. لملمت شتاتي، استرجعت ذكرياتي، قرأت سيرتي، وطويـت صحيفتي. أوصيتهم بسجلماسـة وببعضهم، وطلبـت منهم الصّفح والغفران. أدّيت صلاتي واخترقت الجموع وخرجت.

انتـشرت في أحيـاء سجلماسـة، وقفـت عند دورهـا وقصورها، تحسّسـت سـورها، تأمّلت عيون أطفالهـا، تملّيت وجوه أهلها. عانقـت نخيلها، شربت ماءها. متّعت ناظري ببهائها وأفعمت صدري بعبيرها وملأت قبضتي بترابها الطّيّـب. وعندما رجعت إلى داري، ودخلت معتكفـي، وتمدّدت على فراشي، أحسسـت بصـدق أنّي اتّحدت بهـا إلى أبـد، أنّي صرت جزءًا مـن حفنة التّراب الذي ينسل من قبضتي المرتخية ليعود إلى أصله.

(١) البُرت: حديدة يقطع بها النخل.

شخصيّة فذّة

كشأن سائر شخصيّات هذه الفترة لم تحتفظ لنا المصادر إلّا بمعلومات شحيحة جدًّا عن اليسع وعن دولة بني واسول عمومًا[1]، ومردّ ذلك للخلفيّة المذهبيّة التي أُسّست عليها هذه الإمارة، ولموقعها البعيد عن مركز البلاد هناك على تخوم الصّحراء. إلّا أن ذلك لم يمنعنا من الاعتماد على القليل الذي وصلنا للتّعرّف على الشّخصيّة الفذّة التي امتلكها اليسع، الذي استطاع التحوّل ببني واسول من إمامة قبليّة، محدودة الرّقعة والتّأثير، تعتمد على مفاهيم المذهب الصّفري في الحكم، إلى إمارة أو دولة بمفهوم عصره. لها حاكم متمكّن قويّ، وسيادة كاملة على أراضيها التي وسّعت في عهده بشكل كبير، وجيش قويّ، وعلاقات دبلوماسيّة، وموارد مالية كبيرة ومنتظمة. كما استطاع تحويل سجلماسة من مضرب للخيام وسوق للرّحل، إلى حاضرة تتّخذ شكل العاصمة، من حيث مساحتها وغناها ورفاهيتها وخدماتها وازدهارها العمراني والتجاري والديمغرافي السريع وكثرة أرباضها ونواحيها، بصورة تشبه المدن الميتروبوليتانية في عصرنا.

لم يكن اليسع ليستطيع القيام بهذا العمل الكبير والجبّار الذي استمر ٣٨ عامًا وهي مدّة حكمه، لو لم يتميّز بصفات عظيمة، فقد وصفه البكري بأنّه كان جبّارًا عنيدًا فظًّا غليظًا. وهي صفات تحيل على أعلى منازل القوّة والهمّة العالية والصرامة في إدارة البلاد، وعدم التّساهل مع المخالفين والمفسدين، الذين ورثهم فيما يبدو عن أخيه، الذي امتاز عهده بالإهمال والتّساهل

(١) نجد أخبار هذه الدولة عند البكري أساسًا وعنه نقل غيره.

والتّفريـط. دون أن يمنعه ذلك من أن يكـون حاكمًا كريمًا لأقصى الحدود، فقد ذكـرت المصـادر إنفاقه على بناء السـور من ماله الخاصّ. كـما كان هذا الحاكم عـادلًا متقبّلًا لكافـة الطوائف حتى المخالفـة منها في الدّيـن[1]، مهتماً بازدهار البلاد وإنعاشـها ورفاهية الشّـعب. وباختصار فإنّ ملك بني واسـول ما كان ليزدهر ولا ينمو ويصل لذاك الشّأو العظيم الذي بلغه لولا الأعمال التّأسيسية الجليلـة التي قام بها اليسـع، بدايـة من إخضاع القوى المنافسـة له في الصّحراء والسيطرة على مناجم درعة، وصولًا إلى بناء الحاضرة وإنشاء كثير من منشآتها الصناعية والمعمارية والدينيـة والتجارية، وانتهاء بتوطيد العلاقات مع جيرانه الرستميين وتقوية مركز ابنه مدرار كولي للعهد.

(١) بقيت بسجلماسـة طائفة من اليهود حتى بعد اعتناق أهل هذا الإقليم للدين الإسـلامي، بسبب اشتغالها بالصياغة والتجارة، وهما أكثر حرفتين اشتهر بهما يهود المغرب وخاصة يهود الجنوب. ولا يوجد دليل علـى أنهـم عوملوا بأي نوع من التمييـز إلى أن جاء أبو عبد الله الداعي، فنكل بهم ومنعهم من ممارسـة التجارة. انظر: الاستبصار ص ٢٠٢.

العبرة

إنّما القصور قصور الإرادة والعزيمة لا قصور الإمكانيّات وضعف الموارد. لا يمكنك التحجّج بضعف الموارد والإمكانيات ومعاندة الظروف والجغرافيا لك. لا يمكنك الجلوس دون فعل أي شيء إيجابي، وانتظار تحسّن ظروفك من أجل القيام بذاك الشيء الإيجابي، لأنّ الظروف لن تتحسن ما لم تعمل أنت على تحسينها.

قد تكون الإمكانيات والموارد قريبة منك أو حتى فيك، لكنك لم تبحث عنها، أو لم تفكر فيها كإمكانيات يمكن استغلالها. ستستقيم ظروفك إن عملت على تغييرها، وستجعل من موقعك الجغرافي امتيازًا ونقطة قوة. ما عليك إلا العمل الجاد والتحلّي بالصبر وانتظار أيّة فرصة تبرق لاقتناصها بقوة وجدية.

لا يمكنك التحجج وأنت لم تجتهد فيما تحسن القيام به، وأنت لا تصبر على ما تقوم به. فمن الناس رجال أنشئوا دولًا وأسّسوا مدنًا، واستصلحوا أراضي وكوّنوا تجارات مزدهرة، في ظروف أقسى من ظروفك ومجالات أقحل من مجالك، فقط لأنّهم جاهدوا أنفسهم، وعملوا طويلًا، واستغلوا إمكانياتهم المحدودة، وعرفوا كيفية تطويرها، وصبروا حتى نالوا.

لمحة من تاريخ إمامة بني واسول

إمارة بني واسول المستقلَّة

استعرضنا في ترجمة اليسع كيف نشأت الإمامة على يد أبي القاسم سمغو بن واسول رئيس قبيلة مكناسة عام ١٤٠/ ٧٥٧، وكيف تم تفويض الإمامة لعيسى بن يزيد الأسود **(الإمام الأول)** لخمسة عشر عامًا، قبل أن يتم التخلص منه في ظروف غامضة ويستلمها سمغو **(الإمام الثاني)**، الذي من المرجح أنّه مارس السلطة بصورة غير مباشرة طيلة مدة عيسى بن يزيد، وثلاثة عشر عامًا بصورة مباشرة، أي من بيعته عام ١٥٥/ ٧٧٢ إلى وفاته ساجدًا كما رأينا عام ١٦٨/ ٧٨٤-٧٨٥. ويمكن أن نعتبر عهده عهد تأسيس لهذه الإمامة، التي ستتحول لإمارة وراثية عند انتقال الأمر لابنه الأكبر إلياس **(الإمام الثالث)** الملقب بأبي الوزير. باستثناء أنّه وريث لأبي القاسم سمغو، لم يتميز إلياس بأيّ من صفات القيادة؛ لهذا كان من الطبيعي ألّا يتمكن من حكم الإمارة وقبيلة مكناسة تبعًا لها لوقت طويل. ويمكننا اعتبار فترة ولايته التي امتدت لما يقارب الست سنوات على أنها فترة انتقالية، بين الإمام سمغو والأمير اليسع **(الإمام الرابع)**.

من سوء حظ إلياس وحسن حظ سجلماسة أن سمغو ترك ابنًا آخر، ذا شخصية طاغية وهمة عالية تمنعه من القبول بحكم مهزوز وضعيف وإن كان حكم أخيه، فدبر بتأييد كامل من شيوخ القبائل خاصة، وربما ممن تبقى من أصحاب أبيه خطة لخلع أخيه الضعيف، وقد رأينا كيف تمكن من ذلك دون عناء.

كانت لليسع رؤية جديدة وواضحة في الحكم، تسعى إلى تحويل هاته الإمامة التي قامت على مبادئ مذهبية خاضعة للقوالب القبليّة المتجذرة، إلى إمارة وراثيّة، تحافظ على الضروري من شعارات مبادئ المذهب الصفري لكنها في نفس الوقت تتحلل من قيوده المعرقلة، وتنفتح على التجربة السياسية الإسلامية بشموليتها. فنراه مباشرة بعد توليه عام ١٧٤/ ٧٩٠ يبدأ في تطبيقها، فجهز أولًا جيشًا قويًّا مكنه من التخلص من أعدائه، وإخضاع القبائل المخالفة وتوسيع رقعة إمارته، كما عمل على السيطرة على الموارد الاقتصادية في المنطقة من مناجم وواحات، وأحكم قبضته على الطرق التجارية المخترقة للصحراء في اتجاه مصادر الذهب ببلاد السودان. وقد استغل شرعيته المذهبية كإمام بالمفهوم الخارجي؛ لتنزيل سياسته بكل القسوة والزجر اللازمين، حتى وُصف بالجبار العنيد. ثم بعد أن تم له ذلك التفت إلى سجلماسة التي لم تكن أكثر من تجمع شبه حضاري، وأضفى عليها صفة العاصمة، فدشن عملية تعمير كبيرة توجها بتشييد سور ضخم وطويل[١]، واضعًا بذلك أساسات متينة لإمارة هي الأغنى في مغرب القرن الثاني والثالث الهجريين. وقد رأينا ذلك كله في ترجمته.

توفي اليسع عام ٢٠٨/ ٨٢٣-٨٢٤ تاركًا لخليفته[٢] مدرار **(الإمام الخامس)** إمارة غنية ذات أساسات قوية ومستقرة، وإلى حدود عام ٢٢١/ ٨٣٦ سيحكم مدرار البلاد دون أن يعكر صفوه معكر، مستفيدًا من أعمال أبيه

(١) وصفه ابن الخطيب بقوله: (...فضرب منه على عذارها الحجاب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، يحيط بها مرحلة راكب...) معيار الاختيار ص ١٨٠. وانظر أيضًا سجلماسة وإقليمها ص ١٠٢.

(٢) يذكر ابن عذاري في أخبار عام ٢٠٧ هـ أن أهل سجلماسة أعادوا تولية إلياس المخلوع بعد موت أخيه اليسع، وهو ما يخالف ما ذكره البكري صاحب الاستبصار وابن خلدون بل وما ذكره هو نفسه عن تعرضه للتعريف بأخبار سجلماسة. راجع وقارن: البيان ج ١ ص ٩٦؛ ج ١ ص ١٥٧.

العظيمة وإصلاحاته الواسعة، إلا أن تقدمه في السن وتفضيله لأحد ولديه وهو ميمون ابن أروى الرستمية (**الإمام السادس**) على الآخر هو ميمون ابن بقية السجلماسية وطمعهما في احتكار بعض سلطات أبيهما، سيُدخل الإمارة في حالة من الاضطرابات السياسية، كما سيثير الخلافات المذهبية الدفينة بين الصفرية والإباضية. وسيستمر الصراع متكافئًا بين الأخوين إلى حدود عام ٢٢٤/ ٨٣٩، حين سيميل مدرار إلى جانب ابن الرستمية، وسيستطيعان نفي ابن بقيّة من سجلماسة. ولن يهدأ ابن الرستمية بنفي أخيه والاكتفاء بممارسة الحكم خلف ستار أبيه، فنراه يلجأ بعد مدة إلى خلعه ونفيه خارج سجلماسة. غير أن هاته الطباع الذميمة التي ميّزته طغت على منهجه في الحكم، ودعته إلى سوء السيرة والاستبداد، فلم يكن أمام أهل سجلماسة وحفاظًا على مصالحهم ومكتسباتهم إلا الثورة عليه وخلعه، واستدعاء ميمون ابن بقية (**الإمام السابع**) لتولي الحكم. عاد ابن بقية وهو حافظ لحق أبيه في الإمارة، فساعده على الرجوع إلى منصبه ومؤكدًا بفعله هذا أنه ما قاتل أخاه في سبيل حكم يطمع فيه، بقدر ما كان نضاله محاولة لكشف نواياه الاستبدادية ليس لأبيه قبل أهل سجلماسة.

رجع مدرار إلى سجلماسة واستلم مهامه، غير أن الشّيخ الضعيف الفهم والرأي عاود الاتصال بابن الرستمية يستدعيه إلى سجلماسة ويعده بإعادة توليته، هنا سيدرك أهل سجلماسة أن بقاء مدرار في الإمامة لن يجلب للبلاد إلا مزيدًا من الصراعات، فثاروا عليه وحاصروه، ثم خلعوه وولوا مكانه ابن بقية ولقبوه بالأمير. وقد مرّت سنوات حكمه العشر من عام ٢٥٣/ ٨٦٧ إلى عام ٢٦٣/ ٨٧٧ وهو عام وفاته بهدوء. وفي مدة إمارته مات أبوه مدرار مخلوعًا، أما أخوه فلا تذكر المصادر عن خبره شيئًا.

خلـف ميمون ابنـه محمد (**الإمام الثامـن**) ويبدو أنّ همّة هـذا الأمير الجديد كانت عالية، حيث سيسـتطيع خلال ولايته التي امتدت لسـبع سنوات القيام بعدة أعمال عسكريّة، بدأها بغزو بلاد درعة وتطهيرها من القلاقل التي عرفتها عـلى عهـد أبيه وجده، وختمهـا بالقضاء المبرم عـلى أتباع عمه ابن الرسـتمية؛ مـا أعـاد إلى الإمارة الأمن والهدوء الاسـتقرار الذي فقدتـه. وقد خوّلت هذه الأعمال التّطهيرية عمه اليسـع بن مدرار (**الإمام التاسـع**) الذي سـيخلفه عام ٢٧٠/ ٨٨٣ الاسـتفادة منهـا ومـن الجيش الذي بناه، وتبني مشروع توسـعي والبدء في تجهيز الجيش؛ استعدادًا للتوسع شمالًا وغزو مضغرة، لولا أن الخطر أتـاه من جهـة الفاطميـين الذين سـيقتلونه عـام ٢٩٧/ ٩١٠ ويضعـون حدًّا لاسـتقلال إمارة بني واسـول[1] التي سـتصبح من الآن فصاعـدًا إمارة فاقدة لسيادتها.

(١) راجع في هذه الأحداث في: البكري ج ٢ ص ٣٣٤؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٢؛ البيان ج ١ ص ١٥٦؛ تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ص ١٣٧.

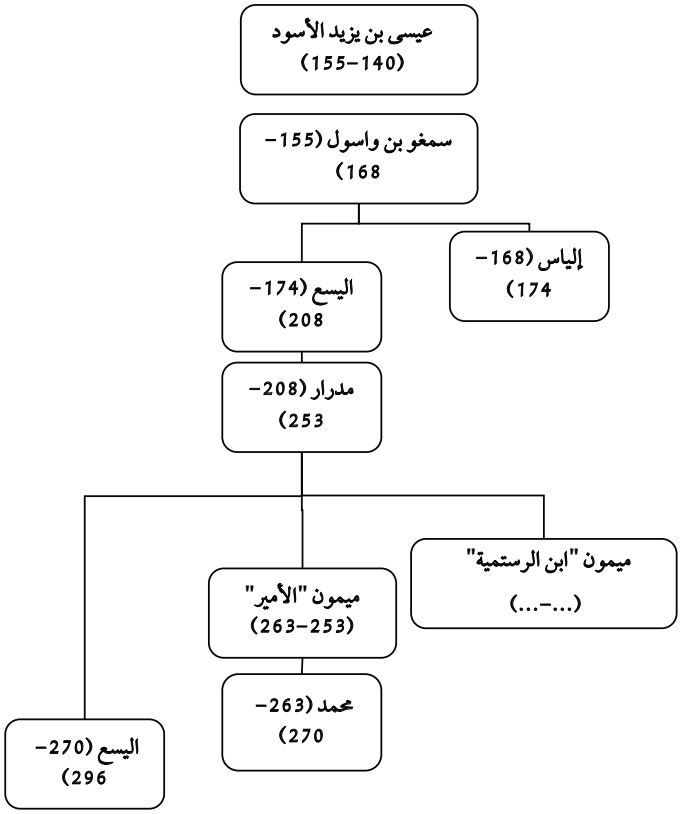

شجرة أمراء إمارة بني واسول المستقلّة

إمارة بني واسول بعد التّدخّل الفاطميّ

تبدأ هذه المرحلة من عام ٢٩٧/ ٩١٠ إلّا أن إرهاصاتها تعود لسنوات قبل ذلك، ولفهم السياق العام لغزو الفاطميين لسجلماسة- ولكل الإمارات المغربية الأخرى- لا ضرر من أن نلقي بعض الضوء على نشأة هذه الدولة وعلاقتها بالمغرب. وهو أمر يجب أن نشير إليه باقتضاب لضرورة استحضاره في كل مرة نذكر فيها الفاطميين وعلاقتهم بالكيانات السياسية المغربية خلال هذه الفترة.

كما هو الحال مع الأدارسة الذين ينتمون إلى الفرع الحسني من آل البيت، فإن مؤسسي دولة الفاطميين يدّعون الانتماء للفرع الحسيني منه. وكلهم- أي العلويين- يرون أنفسهم أصحاب الحق في الخلافة التي انتزعها منهم الأمويون، وفي سبيلها خاضوا صراعًا مريرًا مع الأمويين استشهد فيه كثير منهم، إلى أن انهارت دولتهم وخلفتها دولة بني العباس، الأمر الذي تم اعتباره من طرف الحسنيين وقد آلت إليهم زعامة العلويين انقلابًا على الشرعية ونكثًا بالعهد، خاصة وأن أبا العباس السفاح وأخاه أبا جعفر المنصور قد حضرا المؤتمر الذي عُقد بالأبواء عام ١٢٧ هـ وبايعا محمد النفس الزكية بالإمامة. وقد حدث في نفس المؤتمر أن انشق فرعا البيت العلوي برفض جعفر الصادق[1] ممثل الفرع الحسيني مبايعة محمد النفس الزكية. وهكذا كان الحسينيون في شخص جعفر الصادق أكثر براغماتية من بني عمهم الحسنيين؛ بتخليهم عنهم وتركهم ليواجهوا العباسيين في مواجهات طاحنة، أبرزها ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم عام ١٤٥ هـ ومعركة فخ عام ١٦٩ هـ، التي نجا منها إدريس بن عبد الله واستطاع إيصال دعوته إلى المغرب وتأسيس دولة، سرعان ما ستنقطع

(١) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (توفي ١٤٨ هـ).

علاقتها بالمشرق وتحيد عن المقصد الذي أسست من أجله بادئ الأمر، بعد أن تم تسميم منشئها من قبل العباسيين.

في مقابل الحماس والجرأة والتضحية التي أبداها الحسنيون في محاربة بني العباس، اختار الحسينيون المهادنة والمساكنة والعمل السري مقتدين بالتجربة العباسية الناجحة، عبر تكوين إسماعيل بن جعفر الصادق (المتوفي ١٣٨هـ) نواة لجماعة ذات أهداف بعيدة المدى، وطابع خاص في تفكيرها ونظامها الاجتماعي والديني والسياسي، تلك الجماعة هي "الطائفة الإسماعيلية[١]" التي ينتمي إليها عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية[٢].

بعد موت إسماعيل انتقلت الإمامة- حسب الإسماعيلية- لابنه محمد المكتوم، الذي بقي يعمل على الدعوة لنفسه بمساعدة عدد كبير من الدعاة، وحرص شديد على التخفي والتمويه مستغلًّا انشغال العباسيين بمطاردة الفروع العلوية الأخرى إلى أن فشا أمره، فقرر حينها الاستتار. وهو بذلك أول إمام مستور عند الإسماعيلية. وهؤلاء الأئمة المستورون لا يظهرون ولا يعرفهم أحد إلا بأسمائهم باستثناء "الحجة"، وهو شخص مكلف بتبليغ وصايا الإمام لأتباعه، وتنظيم الدعوة وإرسال الدعاة المتمكنين من فنون

(١) ثاني أكبر الفرق الشيعية الإمامية بعد الإثني عشرية، والفرق بينهما أن الإسماعيلية ينكرون موت إسماعيل في حياة أبيه جعفر الصادق، ويدّعون أنه غاب أو استتر تقية، مع إبقائه لصلة وصل مع أتباعه عبر شخص يمثل وظيفة الحجة أو النائب. وبالتالي فإنهم يجعلون الإمامة له- ولابنه محمد المكتوم من بعده- وهو الإمام السابع عندهم؛ ولذلك عرفوا بالسبعية. إضافة إلى ذلك يخلع الإسماعيلية على أئمتهم صفات خارقة أقرب للألوهية. وقد تشعبت الإسماعيلية لفرق كثيرة كالقرامطة والحشاشين والدروز والفاطميين، الذين استطاعوا تأسيس أكبر خلافة شيعية على الإطلاق. بينما يثبت الإثنا عشرية- أو الموسوية- موت إسماعيل في حياة أبيه؛ مما يعني أن الإمامة انتقلت بعده لوريثه الحي موسى الكاظم وذريته إلى حدود الإمام الثاني عشر، الذي غاب في سرداب عام ٢٦٠هـ، وهم ما زالوا ينتظرون ظهوره إلى غاية اليوم، ولذلك سموه بالمهدي المنتظر.

(٢) انظر فيما سبق: عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ص ٢١.

الإلقاء والتأثير في النفوس في الجهات لإقناع الناس بالدعوة الإسماعيلية. وقد اتخذ محمد بن إسماعيل ميمون القداح حجة، ثم بموته انتقلت الإمامة إلى ابنه عبد الله الرضي الذي بقي مستترًا مع اتخاذه عبد الله بن ميمون بن القداح حجة. وبموته انتقلت الإمامة لابنه أحمد بن عبد الله الذي عاصر المأمون العباسي مع بقاء ابن ميمون حجة له أيضًا. ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسين المقتدى الذي اتخذ أحمد بن عبد الله القداح المشهور بالحكيم حجة، وفي عهده انتشرت الدعوة في كثير من أقطار العالم الإسلامي حتى إن اثنين من دعاته وهما الحلواني وأبو سفيان كسبا أنصارًا ببلاد المغرب، التي اعتبرها الإسماعيليون أهم أهداف دعوتهم. وهكذا توارث البيت الإسماعيلي الإمامة فيما ورث البيت القداحي منصب الحجة. وفي أواخر هذا العهد سيتم إرسال داعٍ جديد إلى المغرب مكان الحلواني وأبي سفيان، هذا الداعي هو أبو عبد الله الشيعي[1].

لم يكن تحرك أبي عبد الله الشيعي من سلمية- مقر الإمام وحجته- إلى المغرب مباشرة، بل عرّج أولًا إلى اليمن عام ٢٧٨هـ، حيث خضع لتكوين مدته عام على يد ابن حوشب أحد أكبر رجال الدعوة الإسماعيلية. قبل أن يخرج مع الحجاج اليمنيين قاصدًا موسم الحج في العام التالي، وهناك سيلتقي بوفد من شيوخ قبيلة كتامة[2]، ممن سبق لهم وأن استجابوا للدعاة السابقين،

(١) الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، أبو عبد الله، المعروف بالشيعي والداعي والمشرقي والصنعاني، يرجع الفضل الكبير لمجهوده الدعوي وأعماله العسكرية الناجحة في تحول الإسماعيليين من حركة دعوية سرية إلى خلافة قوية مترامية الأطراف، وبذلك يمكن اعتباره المؤسس الفعلي للخلافة الفاطمية. وقد كافأه إمامه عبيد الله المهدي- بعد أن أفنى حياته في سبيله- باغتياله عام ٢٩٨هـ.

(٢) من أشد القبائل الأمازيغية البرنسية بأسًا وقوة، وأطوعها باعًا في الملك، تشعبت بطونها وانبثت في جميع نواحي بلاد المغرب، إلا أن جمهورهم كان مستوطنًا خلال هذه المرحلة بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربًا إلى جبل الأوراس من ناحية القبلة، كما كان بالمغرب الأقصى كثير منهم منتبذين. انظر: ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ وما يليها؛ وانظر أيضًا: الدولة الأغلبية ص ٦٦٨. والفضل يرجع إلى هذه القبيلة القوية ولسيوف رجالها في قيام الدولة الفاطمية، واستفحالها وتملكها إفريقية ومصر التي

فحدثهم عن آل البيت وصار يعدد لهم فضائلهم دون أن يكشف عن مقصده ونواياه، وبعد انتهاء موسم الحج رافق الكتاميين حتى وصلوا مصر، فأظهر أنه يريد مفارقتهم والبقاء بها حتى يقيس مدى تأثيره فيهم واقتناعهم به، فأصروا على اصطحابه معهم إلى بلادهم، وأظهروا له بالغ التقدير والاحترام والتعلق. حينئذ خرج معهم إلى بلادهم التي وصلوها عام ٢٨٠هـ، وهو متأكد من أن بلاد كتامة أصلح حقل لبذر زرعه، وأهلها الأكثر قابلية لتلقي الدعوة ونصرتها. وجدير بالذكر أن أبا عبد الله الشيعي انطلق في مهمته هذه، وعزم على الإخلاص فيها دون أن يرى إمامه ولا حجته أو يعرف شخصيهما، وحتى تكليفه بمهمته إنما جاء عن طريق داعٍ آخر، وهو ما يدل على مدى تغلغل الدعوة الإسماعيلية في قلوب أتباعها، وإيمانهم المطلق بإمامهم الذي اعتبروه مخلوقًا مقدسًا وفوق بشري. وقد استطاع هذا الداعي المخلص والنشيط والمثالي بشكل لا يصدق تحقيق نجاح باهر في المغرب، تكلل بإسقاط الدولة الأغلبية بإفريقية عام ٢٩٦/ ٩٠٩ والاستيلاء التام على كل أملاكها[١].

في نفس العام الذي وصل فيه أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب واستقر بين الكتاميين لينشر الدعوة، توفي الحجة أحمد بن عبد الله القداح، وتولى وظيفة الحجة بكل ثقلها ومسؤولياتها شاب من أسرة القداح في حوالي العشرين من عمره، هذا الشاب هو عبيد الله المهدي[٢]، مؤسس الدولة الفاطمية.

نزحت إليها أغلب بطون هاته القبيلة التي شكلت الجيش الفاطمي واستوطنتها عند انتقال الفاطميين من أفريقية إليها.

(١) للتفصيل راجع: الدولة الأغلبية ص ٧٠٦.

(٢) اختلف في نسب عبيد الله اختلافًا كبيرًا، فقيل هو: أبو محمد سعيد بن الحسين بن عبد الله القداح. وقيل هو: سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل. فيكون باعتبار النسبة الأولى من ذرية ميمون القداح؛ وباعتبار الثانية من سلالة إسماعيل بن جعفر الصادق. والنسبة الأولى أقرب للصحة. راجع: عبيد الله المهدي ص ١٤٣.

يعتبر انتقال عبيد الله من الحجة إلى الإمامة من الفصول الشائكة في تاريخ الإسماعيلية، بل وفي تاريخ الإسلام ككل، ولا يهمنا هنا أن نناقشه لعدم ارتباطه بموضوعنا[1]، كما لا يهمنا استعراض الأسباب التي دعت المهدي للهجرة نحو المغرب ولا محطات رحلته من سلمية- من أرض حمص- إلى سجلماسة[2]. على أن ما يهمنا في هذا الصدد هو التأكيد على أن تولي عبيد الله كان وقت حصاد لما زرعه الأئمة والحجج السابقون، الذين مهدوا له السبيل لينتقل من مرحلة الاحتجاب إلى مرحلة الظهور، هذا الظهور الذي سيكون بشكل مفاجئ في سجلماسة.

ولنا أن نتساءل هنا عن الأسباب التي دفعت المهدي لقصد سجلماسة، وليس مصر أو أفريقية أو حتى بلاد كتامة حيث أشياعه وداعيه المخلص أبو عبد الله. يجب أن نعلم أولًا أن المهدي حين غادر سَلَمية لم يكن ينوي الوصول إلى سجلماسة، وإنما كان هدفه الالتحاق بداعيه أبي عبد الله، لكن المضايقات الكبيرة والأعين المبثوثة في أثره من قبل العباسيين في مصر اضطرته للخروج منها، كما أن الحال في إفريقية لم يكن قد استقر بعد لداعيه أبي عبد الله، فالدولة الأغلبية ورغم احتضارها لم توفر جهدًا للإيقاع به، فلم يكن أمامه خيار أفضل من سجلماسة بحكم موقعها القاصي واستقرارها وسهولة التخفي بها في صورة تاجر ريثما تتهيأ أسباب الظهور.

وصل المهدي إلى سجلماسة في أواخر عام ٢٩٢هـ على الأرجح[3]، فوجد أبوابها مفتوحة في وجهه كما هو حالها مع كل تاجر، وأهلها مرحبين بهذا الرجل المهيب الذي تبدو عليه سمة الملوك أكثر من سمة التجار، من كثرة ما يحمل

(١) للتفصيل راجع: عبيد الله المهدي ص ٧٦ وما يليها.

(٢) انظر تفاصيل رحلته: نفسه ص ١٢٥.

(٣) راجع: تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٥٨٥.

مـن أمتعة ومـا يغدقه من أموال على كل مـن تعامل معه. وأما أميرها اليسـع بن مـدرار فقد بـادر المهدي بمهاداته وصِلته، فما كان من اليسـع نتيجة لذلك إلا أن أوجب حقه وعظمه[1]. ثم اسـتأجر المهدي دارًا تليق به، واشترى بعض المماليك لخدمتـه، وأقام بسجلماسـة- هو وولي عهده أبو القاسـم[2]- مدة مـن الزمن آمنًا مطمئنًّا، بل إن مكانته فيها علت مع الوقت، وصار الناس يختلفون إليه للسـؤال عن حوائجهم، وفي نفس الوقت تمكن من الالتقاء بأتباعه ومراسـلة أبي عبد الله الداعـي، ومتابعة ما يجري من تطورات في إفريقية مسـتفيدًا من صفة سجلماسـة كمدينـة تجاريـة يقصدهـا الغربـاء باسـتمرار. ورغم أن أمـير الأغالبـة زيادة الله الثالث ظل يراسـل اليسـع ويخبره بأن عبيـد الله الموجود عنده هـو المهدي الذي يدعـو إليـه أبو عبـد الله ويقاتل لأجله، إلا أن اليسـع ترك عبيـد الله يعيش حياته حرًّا مطمئنًّا. غير أن كلّ شيء سـينقلب عندما سـتصل إلى اليسـع أخبار سـقوط الدولـة الأغلبية على يدي الداعي، وسـيحس لأول مرة بالخطر الداهم لإمارته، وسيسـارع كإجراء وقائي لفرض الإقامة الجبرية على المهدي وولي عهده وعزلهما عـن بعضهما، بينما سـينزل بمن كان معهـما من أصحاب وأعوان أشـد العذاب؛ لدفعهم إلى الإقرار بصلتهم بالداعي.

بعد ثلاثة أشهر من أسر المهدي، خرج أبو عبد الله الشيعي على رأس جيش جرار من كتامة قاصدًا سجلماسـة بعد أن أقر الأمور في إفريقية ونظم شؤونها، وفي زحفه قضى على الإمارة الرستمية دون عناء وقتل إمامها الأخير يقظان بن أبي اليقظان وبعث برأسه إلى القيروان، كما انتهك عاصمتها تاهرت. أما قبائل

(١) افتتاح الدعوة ص ١٦٥.

(٢) القائم بأمر الله، الخليفة الفاطمي الثاني والإمام الثالث عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية. تولى الخلافـة عام ٣٢٢هـ بعد وفاة عبيد الله المهدي، وتوفي بمدينة المهدية عام ٣٣٤هـ محاصرًا من الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد، وخلفه ابنه المنصور إسماعيل.

المنطقـة وخاصة زناتـة فتبددت أمامه وأتته طائعة. ثـم واصل طريقه لافتكاك إمامه دون أن يعترضه معترض. وقد كان افتكاك وأسر عبيد الله المهدي ذريعة مناسـبة للاستيلاء على سجلماسة والاستئثار بثرواتها الطائلة، وبالتالي التحكم في أهم مراكز التجارة الصحراوية.

في الجهة المقابلة جمع اليسـع أهل دولته لمناقشـة الوسـيلة المثـلى للتعامل مع هـذا الوضع الخطـير، فكان الـرأي الذي انتهوا إليـه هو أن يدفعوا المشـتبه في أمرهم إلى الداعي، فأخرج اليسـع رجلًا غير المهدي فلم يعبأ به الداعي، ثم لما خرج المهدي إليهم أخذ الفرح منهم كل مأخذ، فانتهز حينئذ اليسـع الفرصة، وجمع حاشـيته وأهلـه وفر إلى درعة تاركًا المدينة لمصيرهـا[1]. إلا أن هروبه لن يطـول قبل أن يتم القبض عليه وقتله[2]. ثم أمر المهدي داعيه بفتح سجلماسـة فاقتُحمت ونهبت وأحرقت وشرد أهلها وأغرموا مغارم ثقيلة.

ويعتـبر اليهـود أكبر المتضررين من احتلال الشـيعي لسجلماسـة، حيث تم اتهامهم بالوشـاية بالمهدي لدى اليسـع بن مدرار، وعقابًا لهم تم قتل أغنيائهم ومصـادرة أموالهـم وحرمانهم من ممارسـة التجارة وإلزامهـم بتعاطي حرفتي البناء والكنافة[3]. هكذا سـقطت إمارة بني واسـول المستقلة بعد أكثر من قرن

(١) انظر: عبيد الله المهدي ص ١٤١ مع الهوامش. ويذكر ابن خلدون سـياقًا آخر للأحداث هو أن اليسـع حشـد عسـكره وخرج لمقاومة العدوان قبل أن يُهزم أمام الشـيعي وتقتحم عليه المدينة ويقتل بها. ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٣. أما صاحب الاستبصار فيروي أن اليسع قتل على يد رعيته لحقد كان لهم عليه. الاستبصار ص ٢٠٤.

(٢) انظر: تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٥٩٦ مع الهوامش.

(٣) وقد سـماها صاحب الاسـتبصار بالحرفة الرذيلة، وسـمى أصحابها بالكنَّافين، جمع كنَّاف، وهو اسـم الفاعـل من فعل كَنَفَ. يقال: كنفت الرجل أكنفـه أي حطته وصنته، وكنفت بالرجل إذا قمت به وجعلته فـي كنفك. وقـد ارتبط هذا الفعل بالإبل فقيل: الكنيف: حظيرة من خشـب أو شـجر تتخذ للإبل لتقيها الريح أو البرد، سـمي بذلك لأنه يكنفها، أي يسـترها ويقيها. انظر مادة "كنف" في لسان العرب. ومعنى الكنيـف الـوارد هنا يحيل على الأغلـب على المعنى الدارج في لغة المغاربـة ومعناه المرحاض. وعليه

ونصف من تاريخ تأسيسها.

بنو واسول ومحاولات استرجاع السّيادة

أقام المهدي- بعد أن أعلن ظهوره بشكل رسمي وتلقى البيعة بالخلافة[1]- رفقة داعيه وولي عهده أربعين يومًا بسجلماسة ينظم شؤونها إلى أن انقضى شهر محرم من عام ٢٩٧هـ، فخرج منها في موكب ملوكي تتبعه أحمال من التبر والحلي[2] متوجهًا نحو إفريقية، هذا بعد أن ترك بها الداعي واليًا له هو إبراهيم بن غالب المزاتي.

استمر المزاتي في منصبه خمسين يومًا، قبل أن تتحرك الأنفة المغربية- المحبة للاستقلال والرافضة لحكم الأجنبي- في نفوس أهل سجلماسة، ويقوموا على الوالي الشيعي ويقتلوه هو وحاميته الكتامية، ويولوا عليهم الفتح بن الأمير ميمون بن مدرار[3]. ولم يستطع المهدي استرجاع نفوذه على الإمارة لانشغاله بتوطيد ملكه بإفريقية، خاصة بعد أن اغتال داعيه أبا عبد الله؛ الأمر الذي مكّن الفتح من حكم سجلماسة إلى منتصف عام ٣٠٠هـ. ثم بعد موته تمت مبايعة أخيه أحمد، فحكم بمنأى عن تدخل الفاطميين، واستقر أمره تسع سنوات إلى أن زحف إليه قائد المهدي القوي مصالة ابن حبوس في جموع من كتامة ومكناسة الشمال، وحاصر سجلماسة إلى أن اقتحمها عنوة وقتل أحمد وبعث برأسه إلى المهدي حسب العادة المتبعة، وولى مكانه ابن عمه المعتز بن

فلا تخرج حرفة الكنافة عن تنظيف المراحيض والاهتمام بمرابض الإبل وحظائرها وما إلى ذلك من أعمال "رذيلة". الاستبصار ص ٢٠٢.

(١) سيتضرر المغرب كثيرًا من ظهور هذه الخلافة الشيعية التي ستدشن حربًا بالوكالة مع نظيرتها الأموية بالأندلس سيكون شيوخ القبائل أداتها، والساحة المغربية مجالًا لها معظم القرن الرابع الهجري.

(٢) الاستبصار ص ٢٠٤.

(٣) البكري ج ٢ ص ٣٣٦.

محمد بن سارو بن مدرار الموالي له كنوع من الترضية لأهل سجلماسة، وحتى يتجنب ثورتهم على والٍ من غير بني واسول، وأيضًا ليضمن بهذه السياسة تبعية روحية للفاطميين على المدينة الغنية. حكم المعتز باسم الفاطميين إلى أن توفي عام ٣٢١هـ، وكذلك فعل ابنه محمد إلى أن توفي عام ٣٣١هـ. وبنفس الولاء حكم حفيده ذو الثلاثة عشر عامًا سمغو بن محمد بن المعتز شهرين، ثار عليه بعدهما محمد بن الفتح بن ميمون الأمير، وطرده من سجلماسة وتملكها.

بادر محمد بن الفتح عند استيلائه على حكم سجلماسة لإبطال الدعوة الفاطمية ونبذ المذهب الصفري الذي تبناه أسلافه، واستبدله بمذهب السنة والجماعة، وأحسن السيرة وأظهر العدل، ويبدو أن سجلماسة وصلت في عهده إلى درجة كبيرة جدًّا من الغنى والرفاهية والأمن والاستقرار حتى إنه تطلع لغزو جيرانه[1]. وقد توج هذا كله عام ٣٤٢هـ باتخاذ لقب خلافيٍّ هو "الشاكر لله" وإعلان نفسه أميرًا للمؤمنين، وضرب دنانيره الشاكرية المشهورة في الآفاق بجودة عيارها تأكيدًا لسيادته الكاملة[2].

وقد رسم لنا ابن حوقل الذي زار سجلماسة عام ٣٤٠هـ صورة دقيقة عن الرّقي الذي وصلته سجلماسة في هذا العهد بقوله: (ويقارب القيروانَ سجلماسة في صحّة الهواء، ومجاورة البيداء. مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة، ورفاق متقاطرة، وسيادة في الأفعال، وحسن كمال في الأخلاق والأعمال. يخرجون برسومهم عن دقّة أهل المغرب في معاملاتهم وعاداتهم إلى عمل بالظاهر كثير، وتقدّم في أفعال الخير شهير، وحنوّ بعضهم على بعض من جهة المروءة والفتوّة، وإن كانت بينهم الحنات

(١) ابن حوقل ج ١ ص ٨٣.

(٢) انظر فيما سبق: البكري ج ٢ ص ٣٣٦؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٣؛ مفاخر البربر ص ١٤١.

والـترات القديمة تواضعوها عند الحاجة، واطّرحوها رياسـة وسـماحة وكرم سـجيّة تختصّهم، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسـفارهم، وطول تغرّبهم عن ديارهم وتعزّبهم من أوطانهم. ودخلتها في سنة أربعين فلم أرَ بالمغرب أكثر مشـايخ، في حسن سمت، وممازجة للعلم وأهله، إلى سعة نفوس عالية، وهمم سـامقة سـامية. وسـائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسـعة الحال. وتتقارب بالعصبيّة أوصافهم، وتتشـاكل أحوالهم. ولقد رأيت بأودغست صكًّا فيه ذكر حـقّ لبعضهـم على رجل من تجّار أودغسـت وهـو من أهل سجلماسـة باثنين وأربعـين ألـف دينار، وما رأيت ولا سـمعت بالمشرق لهذه الحكاية شـبهًا ولا نظيرًا. ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسـان فاستُطرفت. ولم يزل المعتزّ[1] أيّـام ولايتهـا وهو أميرهـا يجتبيها من قوافـل خارجة إلى بلد السـودان وعُشرٍ وخـراج وقوانين قديمة [على] ما يباع بها ويشـترى مـن إبل وغنم وبقر، إلى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي إفريقية وفاس والأندلس والسـوس وأغمات، إلى غير ذلك ممّا على دار الضرب والسـكّة زهاء أربع مائة ألف دينار تختصّ بها وبعملها[2]).

إلا أن هذا التحوّل السـياسي الذي دشـنه الشـاكر لله سيتم إجهاضه سريعًا على يد جوهر الصقلي، الذي سيصل إلى المغرب على رأس جيش كبير؛ لإعادة النفـوذ الفاطمـي إلى البـلاد التي تحولـت للجانب الأمـوي. وفي عام ٣٤٧هـ سـيكون الجيش الفاطمي محاصرًا لسجلماسـة التي صمدت ثلاثة أشهر، تمكن خلالهـا الشـاكر من الهرب بأهلـه وأمواله إلى حصن منيع بأحـواز المدينة، قبل تسـلم المدينة نفسـها لجوهر الذي سـيدخلها ويصـدر عفوًا شـاملًا عن أهلها لكسبهم إلى جانبه. ثم لم يلبث الشاكر لله أن عاد إلى سجلماسة متنكرًا ليتجسس

(١) اختلط الأمر على ابن حوقل، والمعنِيُّ هنا الشّاكر بالله لا المعتز المتوفى عام ٣٢١هـ.

(٢) ابن حوقل ج ١ ص ٩٩.

أخبارهـا، فغـدر به قوم مـن مطغرة، وقبضوا عليه وأتوا به جوهر؛ فحبسـه في قفـص من خشـب وحمله إلى القـيروان ثم إلى الرقـادة التي بقي سـجينًا بها إلى وفاته عام ٣٥٤هـ.

عـين جوهر عـلى المدينـة واليًا من قبلـه، هو مبـادر بن زيـري البربري عام ٣٤٧هـ قبل أن يغادر المغرب، ومرة أخرى سـيثور أهل سجلماسة بقيادة أحد أبناء الشـاكر لله على هـذا الوالي الأجنبي ويقتلوه. إلا أن ابن الشـاكر لله ولقبه المنتـصر لله لـن يسـتطيع تكرير تجربـة أبيه، وسـيعلن تبعيته الاسـمية للخليفة الفاطمي، الذي سيقبل بذلك ويرحب به بل وسيقر المنتصر في منصبه ويغدق عليـه بالعطايا. ومع ذلك لن يسـتقيم الأمر للمنتـصر طويلًا قبل أن يثور عليه أخوه أبو محمد ويقتله عام ٣٥٢هـ ويتلقب بالمعتز بالله[1]. والمعتز بالله هذا هو آخر أمراء سجلماسة المنتسبين لبني واسول المكناسيين، إذ بموته ستنتقل المدينة لحكم زناتة عملاء الأمويين بالمغرب.

(١) انظـر فيمـا سـبق: ابـن خلـدون ج ٦ ص ١٧٤؛ تاريـخ المغرب العربي فـي العصر الوسـيط ص ١٤٩؛ الخوارج في بلاد المغرب ٢٢٦- ٢٢٧ مع الهوامش.

لمحة عن تاريخ سجلماسة بعد زوال إمارة بني واسول

رغم المحاولات التي قام بها بعض أمراء بني واسول في العهد الثاني؛ للتخلص من التدخلات الفاطمية والحفاظ على سيادتهم السياسية، فإن الانحلال كان قد دب بالفعل في نظامهم السياسي منذ وقت طويل، وبنفس المقدار أصاب الضعف والوهن العصبية القبلية التي قامت الإمارة على أكتافها، فكان توجيه ضربة أخرى كافيًا للإطاحة بهذه الإمارة إلى الأبد، هذه الضربة التي ستوجه إليها عام ٣٦٦هـ[1] على يد بني خزرون، النازحين من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى.

كانت مواطن بطون مغراوة وبني يفرن الزناتيين بالمغرب الأوسط، ثم انتقلوا تحت قيادة زعمائهم من مواطنهم الأصلية إلى ما وراء وادي ملوية؛ متراجعين أمام الحملة الشعواء التي شنها عليهم بولكين بن زيري الصنهاجي المناصر للفاطميين عام ٣٦٠هـ؛ كانتقام منهم لقتلهم أباه زيري بن مناد، وأيضًا كعقاب لهم على تعنتهم ومساندتهم لأعداء الفاطميين والخارجين عليهم، ووقوفهم في أكثر من مناسبة حجر عثرة أمام طموحاتهم التوسعية نحو الغرب. وقد استطاع هؤلاء الزناتيون وخاصة المغراويين مستفيدين من تفكك الهياكل السياسية وانحلال كبريات العصبيات القبلية المغربية ومساندة الأمويين لهم، من تأسيس إمارات لهم بالمغرب، كإمارة زيري بن عطية بفاس، وإمارة لقوط الزناتي بأغمات، وإمارة خزرون بن فلفول بسجلماسة على أنقاض

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤. ويذكر في موضع آخر (ج ٧ ص ٥١) أن زحف خزرون على سجلماسة كان عام ٣٦٧هـ.

إمارة بني واسول[1].

سجلماسة تحت حكم بني خزرون

كان خزرون هذا أحد أمراء مغراوة وأعيانها، وهو كسائر الزناتيين بالمغرب يدين بدعوة أمويي الأندلس ويعمل باسمهم؛ ولذلك قام في سبيل التقرب منهم بجمع قومه والزحف بهم على سجلماسة لفتحها باسم الخلفية الأموي هشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، فبرز إليه أبو محمد المعتز مدافعًا عن مدينته، لكنه فشل في هزم خزرون الذي قتله وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح[2]، وأقام الدعوة لهشام المؤيد، فأقره الخليفة الأموي على فعلته وكافأه ببعثه العهد له عليها وعلى جهاتها؛ فكانت هذه أوّل دولة أقيمت للأموي الأندلس بالمغرب[3].

حكم خزرون سجلماسة إلى أن هلك، وولي أمرها من بعده ابنه وانودين، الذي سيكون عليه مواجهة أول امتحان له، عندما سيزحف بولكين بن زيري إلى المغرب على رأس حملة كبيرة عام ٣٦٩هـ، ونظرًا لضعف موقفه أمام الجيش الصنهاجي سيفر وانودين عن سجلماسة، ويلجأ- كحال سائر أمراء مغراوة الآخرين- إلى سبتة، المنطقة الأموية الوحيدة الباقية بالبلاد. سيعين

(١) كان الصراع الأموي-الفاطمي صراعًا بالوكالة حول مناطق النفوذ بالمغرب الأقصى، تحمّل وزره الصنهاجيون من الجانب الفاطمي، وهذه الإمارات الزناتية من الجانب الأموي، وقد حركت هذا الصراعَ عواملُ كثيرة، كالعامل العصبي؛ فصنهاجة عدو أزلي لزناتة، والعامل السياسي المتمثل في الصراع الخلافي بين الخلافة الأموية ونظيرتها الفاطمية، والعامل الديني بين سنة وشيعة، وأخيرًا العامل الاقتصادي المتمثل في رغبة كل منهما في السيطرة على طرق التجارة الصحراوية. وقد استطاع الأمويون حسم هذا الأخير لفائدتهم في المرحلة الأخيرة من الصراع بسيطرتهم- عبر عملائهم الزناتيين- على سجلماسة وفاس وسبتة.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٤.

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٥١.

بولكين عمالًا على كل المناطق التي سيطر عليها ليتفرغ لحرب برغواطة. ولا بد أن انشغال الصنهاجيين بحرب برغواطة وصمود برغواطة البطولي أمام الغزاة قد أضعف من شوكة الجيش الصنهاجي؛ ما شجع أمراء مغراوة بالرجوع إلى مناطق نفوذهم، فرجع وانودين إلى سجلماسة وافْتَكّها من يدي عامل بولكين، واستولى على ما بحوزته من أموال وذخيرة، وكان هذا عام ٣٧٣هـ. ثم إن العلاقة ساءت بين زيري بن عطية أمير زناتة كلها وبين المنصور بن أبي عامر، وتحرّكت فيه الرغبة في الاستقلال، فخلع طاعته واستبد بأمره. فكان من الطبيعي أن يتبعه في ذلك بقية أمراء زناتة الأقل شأنًا منه، ومنهم وانودين الذي خلع طاعة الأمويين وأعلن استبداده بسجلماسة. أمام هذه التطورات المتلاحقة وخشية من أن يخرج المغرب من بين يديه، أنفذ ابن أبي عامر جيشًا بقيادة فتاه واضح، الذي فشل في هزم زيري بن عطية، ثم أردفه بآخر يقوده ابنه عبد الملك، الذي استطاع إخضاع الأمراء الخارجين، قبل أن يعود إلى الأندلس عام ٣٨٩هـ مستعملًا على سجلماسة- التي فرّ منها وانودين- حميد من يصل المكناسي، ومستخلفًا على المغرب واضحًا الفتى.

ويبدو أن وانودين الذي ذاق ذهب سجلماسة ورخاءها لم يكن مستعدًّا لفعل أي شيء للرجوع إليها، فداخل الأمويين في شخص خليفتهم واضح الفتى، والتزم بالطاعة التامة وانتهى إلى اتفاق مع واضح، يعود على إثره وانودين إلى ولاية سجلماسة رفقة ابن عمه زيري بن فلفول؛ مقابل مال وخيل وسلاح يدفعانه له كل سنة، كما رهن كل واحد منهما ابنه، وهكذا عاد وانودين مرة أخرى إلى سجلماسة عام ٣٩٠هـ.

بقي وانودين بسجلماسة حاكمًا باسم الأمويين يدعو لهم في الخطب ويبعث إليهم المرتّب عليه؛ إلى أن دب الضعف والانحلال في الخلافة الأموية، فرأى

أن الوقت قد حان للاستبداد بأمره. وخلع طاعتهم وتحلل من عهدهم ودشّن العمل بمشروعه السياسي والعسكريّ الخاص. فقام أوّلًا بعدّة أعمال عسكرية بهدف توسيع رقعة إمارته، وتوّجها باحتلال إقليم درعة؛ كي يضمن سيطرته الكاملة على كل طرق التجارة الصحراوية، ولعله اقتفى هنا منهج اليسع حين قام بنفس الأعمال.

أثارت هاته الأعمال العسكرية قلق أمير فاس المعز بن زيري المغراوي، الذي ما زال يعتبر إمارته أقوى الإمارات الزناتية بالبلاد؛ فنهض بدعوى تضرر مصالحه الاقتصادية بعد هذا الاحتلال على رأس جيش لمحاربة وانودين. هذه المرة لن يفر وانودين كما فعل في المناسبتين السابقتين، بل سيعد جيوشه ويواجه جيش المعز ويتغلب عليه عام ٤٠٧هـ. أدت هذه الهزيمة لضعف أمير فاس، واختلال سلطة إمارته؛ الأمر الذي سيستغله وانودين أفضل استغلال، وسيقوم بمجموعة من الحملات على أملاك إمارة فاس، وينجح في احتلال مدينة صفرو وجميع قصور ملوية التي ولى عليها أفرادًا من أهل بيته. وعلى العموم فقد كان وانودين رجلًا ماكرًا، متحلّيًا بالصّبر وإحسان استغلال الفرص؛ فوصلت إمارة بني خزرون أُوُجَّ قوّتها واتساعها في عهده، إلى أن وافته المنيّة في تاريخ لم تحتفظ لنا المصادر به. وعلى كل حال فقد انتقل حكم سجلماسة بعد موت وانودين إلى ابنه مسعود، واستمرت سجلماسة في عهده محتفظة بازدهارها وغناها، واستفاد مسعود من أعمال أبيه المهمّة وعدم وجود منافسين له، وعلا شأنه بدليل الدنانير الذّهبية التي ضربت باسمه في عهده[1]. ولن يكون لمسعود هذا من اسمه نصيب كبير، حيث سيداهم المرابطون إقليم درعة عام ٤٤٥هـ، ويقتلون مسعودًا ويدخلون عاصمته سجلماسة في العام الموالي، مرة أولى بقيادة عبد الله بن ياسين، ثم مرة ثانية بعد ثورتهم

(١) سجلماسة وإقليمها ص ٤٥١.

عـلى الحامية المرابطيّـة وقضائهم على كل من كان بها من مغراوة. وبحلول عام ٤٦٣/ ١٠٧١ سيسـتخلص المرابطـون من جميع المناطق الأخـرى التّابعة لبني وانودين في صفرو وملوية، ويكملون عمليّة تصفيّتهم سياسيًّا وقبليًّا[١].

سجلماسة تحت الحكم المرابطيّ

دخلـت سجلماسـة تحت سـلطة الدولة المرابطيـة لتندمج سياسـيًّا مع باقي أقاليـم المغرب وجهاته، وقد اسـتفاد المغرب اسـتفادة كبيرة مـن هذه الوحدة السياسـية، حيث إن النشـاط التجاري للمدينة أصبح أكثـر ميلًا نحوه؛ بفعل جهـود المرابطـين في تمهيـد الطـرق التجارية وتوجيههـا نحـوه، خاصة وأنهم سـيطروا على الطرق التي تصل إلى سجلماسـة من بلاد السودان عبر الصحراء سـيطرة كاملة، وهو الأمر الذي سـاهم في انتعاش مراكز أخرى كأغمات التي أصبحت من أهم مراكز التجارة الصحراوية، ومراكش التي اتخذها المرابطون عاصمة لمغربهم الشاسع، ومدينتي إيجلي وتامدلت بالسوس وغيرها[٢]. وهكذا استطاع المرابطون تفعيل سجلماسة لتكون قاطرة تنمية وازدهار حقيقي لباقي مناطق البلاد، بصورة أكبر بكثير مما كانت عليه في العهود السابقة للوحدة. وقد بدأ المرابطون في ضرب سكتهم بالمدينة منذ أيام زعيمهم عبد الله بن ياسين[٣]، أي قبـل اسـتكمال توحيدهم للمغـرب؛ مما يـبرز دور المدينة كقاعـدة مركزية للمرابطين. أما عسكريًّا فقد كانت سجلماسة إحدى القواعد العسكرية المهمة للمرابطين، والتي يستعينون بعسكرها في حروبهم[٤].

(١) انظر فيما سبق: ابن خلدون ج ٧ ص ٥٠ وما يليها؛ البيان ج ١ ص ٢٥١.

(٢) سجلماسة وإقليمها ص ٤٠٣.

(٣) انظر جدول العملات، سجلماسة وإقليمها ص ٤٥١.

(٤) البيان (قسم الموحدين) ص ١٩.

سجلماسة تحت الحكم الموحديّ

لم تعرف سجلماسة في العهد المرابطي أيّة أحداث سياسية كبيرة، إلى أن فتحها أبو حفص الهنتاني من شيوخ الموحدين بعد فتح مراكش عام ٥٤١هـ، واضعًا بذلك حدًّا للسلطة المرابطية التي استمرت بالمدينة زهاء القرن[١]. وقد حافظت سجلماسة في العهد الموحدي على لعب موقعها الرئيسي في التجارة الصحراوية، بل إن موقفها تعزز أكثر بإزاحة منافستها أغمات، وتقَوَّى بالعناية الخاصة التي أولاها الموحدون للمدينة التي تعتبر باب التبر. ويأتي حرص الموحدين وعنايتهم- التي فاقت عناية المرابطين- بسجلماسة وإقليمها، في سياق عنايتهم بخطوط التجارة التي أصبحت تمتد من تخوم الصحراء إلى الأندلس، والتي تضمن مواردُها المهمةُ في نفس الوقت استقرارَ الدولة وقوتها وتحكمها في الأوضاع الداخلية؛ بما تغدقه من عطاءات على رجالها وأعوانها وجنودها. ولا بد أن اكتشاف ممالح تاتنتال[٢] كان من العوامل التي دفعت القوافل للمرور بها، والتخلي عن المرور بمدن السوس التي تقع على الطريق الساحلي، وقد كان لقرب سجلماسة من هذه الممالح أثره في هذه العملية. ولم يكن في مصلحة الموحدين- على ما يبدو- التدخل في تحويل الطرق التجارية نحو مراكز أخرى قريبة من عاصمتهم مراكش، ما دامت سجلماسة مرتبطة بها عبر طريق درعة الأوسط، فاكتفوا بإسناد أمر تسيير المدينة الإقليم لأمراء من البيت الحاكم حتى يضمنوا مراقبة مباشرة لها[٣].

(١) البيان (قسم الموحدين) ص ٣٢.

(٢) وتعرف أيضًا بتغازى وهي تقع اليوم بأقصى شمال مالي، والمسافة بينها وبين سجلماسة لا تتعدى عشرين يومًا. وقد كان لهذه الممالح دور مهم في التاريخ المغربي.

(٣) سجلماسة وإقليمها ص ٤٠٦.

في مطلع القرن السابع الهجري سيتكبد الجيش الموحدي هزيمة قاسية في موقعة العقاب بالأندلس، ولن تستطيع الدولة الموحدية تلافي انعكاساتها السلبية على البلاد، خاصة ما يتعلق بمناطق النفوذ، فلم تعد الدولة قادرة على بسط نفوذها على سائر مجالها كما كانت قبل هذه الهزيمة. وتغيب عنا أخبار سجلماسة خلال السنوات الأولى من القرن السابع، باستثناء أخبار متفرقة مرتبطة بالصراع الذي قام بين الأمراء الموحدين على الحكم، والتجاء أحدهم إلى سجلماسة وهو يحيى بن الناصر بعد انهزامه أمام الخليفة المأمون. ولا بد أن التدهور السياسي الكبير والخسارة البشرية الفادحة التي مُنِيَ بها المغرب عقب الانكسار في معركة العقاب، وافتقاره للقوى المنتجة، إضافة للوباء العظيم الذي اجتاح البلاد في العام المُوالي، وتوالي الكوارث الطبيعية، قد عرقلت عجلة الاقتصاد بسجلماسة أيضًا. لكن سجلماسة فيما يبدو قد استطاعت بفضل اقتصادها القوي ونظامها الزراعي أن تصمد أمام الأزمات المتتالية على البلاد، وتحد من تأثيرها السلبي أكثر من غيرها من مناطق؛ ولذلك نرى الخليفة الرشيد يلجأ إليها بعد مهاجمة يحيى بن الناصر بجموع من عرب الخلط[1] مراكش عام ٦٢٩هـ وتمكنه من دخولها. وقد تمنعت سجلماسة على الرشيد بادئ الأمر، ثم استطاع بعد شهور دخولها بمساعدة المرتزقة المسيحيين الموجودين بها. كانت المدينة طوق النجاة الأخير للرشيد، فقد وفرت له الوقت والموارد المالية الكافية لاستجماع قوته والعودة من جديد لاسترجاع عاصمته مدعومًا بعرب المعقل، الذين أصبحوا يشكلون قوة كبيرة بهذه المناطق الصحراوية بعد أن كانوا قلة ضعيفة بها[2]. ترك الرشيد عند مغادرته سجلماسة عاملاً عليها من قبله سرعان ما ستنقلب المدينة عليه، ويساعد أهلها ثائرًا قام بنواحيها على دخولها

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٠.

(٢) انظر في دخولهم إلى المغرب: ابن خلدون ج ٦ ص ٧٧ وما يليها.

وتملكها هو محمد بن عبد العزيز الصنهاجي، الذي سيعلن مباشرة استقلاله بسجلماسة وإقليمها، وحاول التشبه بالخلفاء الموحدين، إلى أن أخرجه عنها أبو محمد بن وانودين، وأعاد إليها الدعوة للخليفة الموحدي الرشيد، وذلك عام ٦٣٤هـ[١].

في سنة ٦٤٠هـ ستخلع المدينة طاعة الموحدين، وتبايع للحفصيين بقيادة عاملها عبد بن زكرياء الهزرجي، الذي استقوى بعرب المعقل وبدعم أبي زكريا الحفصي، قبل أن يجهز الخليفة السعيد حملة عسكرية أطاحت بالهزرجي وأعادت المدينة لطاعة الموحدين من جديد عام ٦٤٢هـ[٢].

سجلماسة تحت الحكم المريني

في السنوات التالية استطاع المرينيون توسيع نفوذهم بالمغرب على حساب الموحدين، مستفيدين من موت الخليفة السعيد. وما إن استولوا على فاس وسلا ورباط الفتح وبلاد فزاز وبلاد تادلا؛ حتى اشرأبت أنفسهم للسيطرة على بلاد القبلة، في سبيل تعزيز نجاحاتهم العسكرية على حساب ما تبقى من النفوذ الموحدي، وأيضًا لإحكام قبضتهم على المدينة المتحكمة في التجارة الصحراوية، وذلك ما سيتم لهم عام ٦٥٣هـ، حيث سيسيطرون على سجلماسة ودرعة وما إليها، بقيادة أميرهم أبي يحيى بن عبد الحق، وبمساعدة من يحيى القطراني الذي اتفق مع الأمير المريني على أن يعينه واليًا على المدينة إن سهل له أمر تملكها. ولم تفلح محاولة الخليفة الموحدي المرتضى في استرجاعها في السنة التالية، ولا محاولة الاستيلاء عليها التي قام بها الأمير الزياني يغمراسن عام

(١) البيان (قسم الموحدين) ص ٣٣٨.

(٢) نفسه ص ٣٦٣.

٦٥٥هـ في حلقة من حلقات الصراع المريني-العبد وادي[١].

عرف المرينيون كسابقيهم الأهمية الكبيرة للمدينة، فعين بها أبو يحيى قبل مغادرته إياها طاقمًا كبيرًا من رجال الإدارة والجباية والجيش، وعلى رأسهم القطراني؛ تأكيدًا للدور الذي تلعبه المدينة في مخططاتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية[٢]. ثم بعد موت أبي يحيى عام ٦٥٦هـ دخل المرينيون في نزاع حول الزعامة، الأمر الذي استغله القطراني مظهرًا حقيقة مخططه؛ فطرد ممثلي المخزن المريني من المدينة بمساعدة العرب وأعلن استقلاله بها. وكنوع من إضفاء الشرعية على حكمه؛ سارع إلى الاعتراف بالسيادة الاسمية للخليفة الموحدي المرتضى، وطلب منه مقابل ذلك إمداده ببعض الموظفين الإداريين والعسكريين، الأمر الذي قبله المرتضى؛ فلأن يستبد القطراني بسجلماسة مع اعترافه بسيادة المرتضى الاسمية على المدينة، أحب إليه من أن يملكها أعداؤه من بني مرين. وفعلًا أرسل المرتضى الطاقم، وعلى رأسه القاضي أبو عمر بن حجاج وقائد رومي، ويبدو أن القطراني رغم خبثه وحيلته كان قليل الخبرة ضعيف الرأي؛ إذ سيستطيع القاضي استمالة الناس وكسب محبتهم، بينما تقرب القائد الرومي من القطراني حتى صار من خاصته، واستمر على ذلك مدة حتى تمكن من الفتك به عام ٦٥٨هـ، ثم أعلن الاثنان- القاضي والرومي- أن قتل القطراني إنما كان بأمر من الخليفة المرتضى جزاء لغدره[٣].

بعد مقتل القطراني عين المرتضى القاضي أبا عمر واليًا على المدينة وإقليمها، فقام بأمرها خير قيام، واستطاع الصمود أمام الحصار المريني عام ٦٦٠هـ[٤]،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٣.

(٢) سجلماسة وإقليمها ص ١٩٨.

(٣) البيان (قسم الموحدين) ٤١٣.

(٤) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٨.

واستمر في منصبه إلى أن توفي أو قُتل عام ٦٦٢ هـ[١]. وبموته ستودع سجلماسة السلطة الموحدية إلى الأبد، وتصبح خاضعة لتدخلات عرب المنبات من بني معقل- العصبية الأقوى في المنطقة- الذين سيتغلبون عليها ويبعثون ببيعتهم ليغمراسن، ويحملوا أهل سجلماسة على مبايعته. فما كان من الأخير إلا أن قصد المدينة في جموع من قومه، ودخلها منتشيًا بهذا الفتح السهل، وعين ابنه يحيى أميرًا عليها. وسيهتم يغمراسن بسجلماسة أيّما اهتمام؛ لوعيه بالمساهمة الاقتصادية الكبيرة التي يمكن للمدينة تقديمها لمملكته، فعمل بواسطة حلفائه من عرب المنبات على تحويل طرقها إلى عاصمته تلمسان، كما صار يبعث كل سنة ولدًا من أولاده لضبطها وجباية خراجها، أما وظيفة حمايتها فقد تركها لحلفائه العرب.

في هذا الوقت كان بنو مرين منهمكين في القضاء على ما تبقى من النفوذ الموحدي بالمغرب، وما إن قتلوا آخر الخلفاء الموحدين واستولوا على العاصمة مراكش عام ٦٦٨ هـ، حتى حشد أميرهم يعقوب بن عبد الحق جيوشه وقصد سجلماسة، وضرب عليها حصارًا شديدًا انتهى بدخولها عنوة عام ٦٧٣ هـ بعد تسعة أشهر من الحصار. وما إن دخلها حتى استباح من ظفر به من الزيانيين والعرب وقتلهم جميعًا، وضم المدينة إلى مجال النفوذ المريني[٢]. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن المرينيين استعملوا في هذا الحصار البارود والآلات المدفعية لأول مرة في تاريخ المغرب[٣].

استمر عرب المعقل مصدر ثورة وإزعاج وتخريب، وضرر وفساد وتهديد للطرق التجارية الصحراوية، ونهب للقوافل طيلة ما تبقى من القرن السابع؛

(١) روض القرطاس ص ٢٩٧؛ ابن خلدون ج ٧ ص ١١٤.

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١١٤ و ص ٢٤٨؛ روض القرطاس ص ٣١٢؛ الاستقصا ج ٣ ص ٣٦.

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٩.

ما فرض على المرينيين العمل على كسر شوكتهم في عهد السلطان يوسف بن يعقوب، الذي أوقع بهم وأثخن فيهم بالقتل والسبي، واستكثر من رؤوسهم فعلقت بشُرفات مراكش وفاس وسجلماسة[١]. إضافة إلى هذا فقد عصفت بالبلاد كوارث طبيعية متوالية كان لسجلماسة نصيب منها، الأمر الذي أثر على انتعاشها الاقتصادي[٢].

لم تعرف المدينة مطلع القرن الثامن أية أحداث بارزة، إلى أن حل بها أبو علي عمر عام ٧١٤هـ بعد صفقة أبرمها مع أبيه السلطان أبي سعيد عثمان، قضت بتخلي أبي علي عن أطماعه في العرش- الذي استطاع الاستبداد به لبضعة أشهر- ومغادرة فاس التي تحصن بها، مقابل منحه سجلماسة وإقليمها كإقطاع. أدرك أبو علي أن سجلماسة- مدينة الذهب- بالازدهار الكبير الذي شهدته في هذه الفترة وشبكة علاقاتها التجارية مع العديد من المدن المتوسطية[٣]، أكثر خدمة لطموحاته السياسية من فاس؛ لذلك نراه ما إن وصلها واستقر بها حتى أقام لنفسه بها مُلكًا، ودوّن الدواوين، واستلحق، واستركب، وفرض العطاء، واستخدم ظواعن العرب من المعقل، وافتتح قصور الصحراء، وقصور توات وتيكورارين وتمنيطت، وغزا بلاد السوس فافتتحها وتغلب على ضواحيها، وأثخن في أعرابها من ذوي حسان والشبانات وزكنة حتى استقاموا على طاعته[٤]، مستفيدًا من سيطرته الكاملة على مواردها الجبائية، وتصّرفه التّام في سائر أمورها[٥].

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨٠.

(٢) سجلماسة وإقليمها ص ٢١٨.

(٣) راجع: سجلماسة وإقليمها ص ٣٦٧ وما يليها.

(٤) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٢٣.

(٥) روض القرطاس ص ٣٩٩.

أعطى شبه الاستقلال هذا لأبي علي إحساسًا بأن ملكه صار مكافئًا لملك أبيه السلطان، فطمع من جديد في التغلب عليه، فبادر لإكمال سيطرته على درعة، وقضى على بني يدر المستقلين بتارودانت منذ منتصف القرن السابع. وهكذا تمت له السيطرة الكاملة على مجموع المناطق الواقعة جنوب جبال الأطلس الكبير، ثم سما للسيطرة على مراكش مرة أولى عام ٧٢٠هـ، كمرحلة أولى في مشروع السيطرة على كل البلاد، لكنَّ أخاه أبا الحسن كان له بالمرصاد، حيث وصلها من فاس وبقي بها مدة ضبط فيها ثغورها وأمّنها. وقد دفع وصول أبي الحسن إلى مراكش أبا علي للرجوع إلى سجلماسة، وتأجيل مخططه إلى أن تسنح الفرصة من جديد.

سنتان قضاهما أبو علي في سجلماسة استطاع خلالهما الاستعداد، وما إن وجد الفرصة مواتية، حتى حشد جموعه وسار بهم إلى أن وصل مراكش واستطاع دخولها مستغلًّا عنصر المباغتة، وسيطر عليها وملك سائر ضواحيها[1]. أصبحت الدولة المرينية بعد سيطرة أبي علي على مراكش مقسّمة إلى منطقتي نفوذ مريني. إحداهما في الشمال عاصمتها فاس، وأخرى بالجنوب عاصمتها سجلماسة. الأمر الذي لم يكن ليقبله السلطان أبو سعيد الذي رأى في بسط ابنه لسلطته على مراكش، خرقًا للاتفاق الذي أبرماه عام ٧١٤هـ، فجهز الجيوش لمنازلة ابنه والتقى الجمعان بوادي ملوية، حيث انتصر السلطان على ابنه وسحق عسكره وذلك عام ٧٢٧هـ. تراجع أبو علي بعد هذا الانكسار إلى سجلماسة، فيم تقدم السلطان واسترجع مراكش ومهّد نواحيها، ثم تحرك في اتجاه سجلماسة لإخضاع ابنه، إلا أن الأخير استغل الحب الكبير الذي يكنه له أبوه، وطلب منه الصفح ووعده بالخضوع له والحفاظ على السلم، فأجابه السلطان لذلك وأقلع عن مهاجمة سجلماسة[2].

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٢٣.

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٢٤.

استمر أبو علي في حكم سجلماسة دون أن يتجاوز حدود إقليمه إلى أن هلك السلطان أبو سعيد عام ٧٣١/ ١٣٣١، وتولى الحكم مكانه ابنه أبو الحسن، فكان أول ما فعله السلطان الجديد، أن قصد سجلماسة حيث تلقته وفود أخيه أبي علي حاملة تهانيه بالملك، ومؤكدة عدم رغبة أبي علي في منازعته عليه، ورضاه بما منحه إياه أبوه في حياته. فرضي أبو الحسن ذلك من أخيه، وجدد له العقد على سجلماسة وإقليمها، وانكفأ راجعًا إلى تلمسان لمحاربة الزيانيين[١].

لم يكن اعتراف أبي علي بأخيه أبي الحسن إلا مناورة سياسية، فما إن وصل الأخير بجيوشه إلى تلمسان حتى أعلن أبو علي الخروج على أخيه، ولم يكتفِ بذلك، بل تحالف مع السلطان الزياني أبي تاشفين ضد أخيه، ولكي يزيد الضغط عليه دشن سلسلة من الحملات العسكرية على مناطق نفوذ أخيه. فما كان من أبي الحسن إلّا أن عاد إلى فاس حيث أعدّ العدة وخرج نحو سجلماسة؛ عازمًا على الانتقام من أخيه والقضاء على نفوذه الذي طالما كان مصدر تهديد للدولة. وصل أبو الحسن سجلماسة وضرب عليها حصارًا خانقًا، ولم تفلح خلاله غارات الزيانيين على الحدود الشرقية للمرينيين في صرف همّ أبي الحسن عن فتحها. وبعد عام كامل من الحصار، استطاع أبو الحسن اقتحامها عنوة عام ٧٣٣/ ١٣٣٣، وقبض على أخيه وأودعه السجن، ثم عاد فقتله بعد ذلك ببضعة أشهر خنقًا[٢].

عرفت سجلماسة في عهد أبي الحسن استقرارًا سياسيًّا ملحوظًا لم تحظَ به منذ زمن بعيد، كما مثلت أحد أهم مصادر الجباية بالنسبة لخزينة الدولة المرينية[٣] في عهد أبي الحسن، الذي كان له مشروع خلافيّ احتاج إلى موارد

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٥.

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٦.

(٣) راجع: سجلماسة وإقليمها ص ٢٥١.

مالية ضخمة. وقد أخلص أهل سجلماسة لهذا السلطان وتعلقوا بطاعته تعلقًا كبيرًا؛ نتيجة لتسامحه معهم عند اقتحامها على أخيه أبي علي، ولإسقاطه عنهم مجموعة من المغارم التي كانوا يؤدونها قبل توليه الحكم. وقد كان أبو الحسن يعلم ما يكنه أهل سجلماسة له من حب وما يدينون له به من طاعة؛ لذلك نراه بعد فشل حملته على إفريقية وفقدانه لعرشه لفائدة ابنه أبي عنان، يلجأ إليها عام ٧٥٠/ ١٣٥٠، وفي المقابل نرى أهلها يخرجون إليه- ما إن عاينوا مقدمه- مظهرين الحب والتمسك بحكمه. مكث أبو الحسن مدة بالمدينة قبل أن يغادرها في اتجاه مراكش، بعد علمه بخروج ابنه متوجّهًا إليها على رأس جيش كبير لقتاله، مجنبًا بذلك سجلماسة حصارًا أكيدًا. لم يصرف خروج أبي الحسن عن سجلماسة ابنه عنها؛ ما يدل على أن السيطرة على المدينة كانت بنفس أهمية تحييد تهديد والده. فدخلها أبو عنان بجيشه وضبط شؤونها وعيّن واليًا عليها، ثم عاد إلى حضرته وذلك عام ٧٥١/ ١٣٥١[١]. وقد مرّ ابن بطوطة بسجلماسة في عهد السلطان أبي عنان عام ٧٥٣/ ١٣٥٢ ووصفها بأنها من أحسن المدن[٢]. استمرت المدينة على حالها إلى حدود عام ٧٥٥/ ١٣٥٥ حيث خالف أولاد الحسين من عرب المعقل على السلطان أبي عنان ونازلوا سجلماسة. ويُفهم مما قاله ابن خلدون أن سجلماسة أصبحت منذ هذا التاريخ خاضعة لتحكم عرب المعقل من جديد[٣].

دخلت الدولة المرينية بعد اغتيال السلطان أبي عنان عام ٧٥٩/ ١٣٥٨ مرحلة الضعف بتحكم الوزراء والحُجَّاب في دواليب الدولة والاستبداد بسلاطينها الضعاف، فكان من المنطقي أن يضعف نفوذها على الأطراف،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٧٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٢٣٩.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٧١.

وتطمع القبائل في التحكم فيها بعيدًا عن السلطة المركزية للدولة. وقد شهدت سجلماسة ابتداء من التاريخ المذكور اضطرابات عديدة، جعلت النفوذ المريني بها في غاية الاختلال، خاصة مع تحكم عرب المعقل بإقليمها، وتحالفهم مع بني عبد الواد أعداء بني مرين[1]. وقد استمر هذا الوضع إلى حدود عام ٧٦٣/ ١٣٦٢ حيث سيصل المدينة أبناء أبي علي بن أبي الحسن: عبد الحليم وعبد المؤمن وابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، بعد فشلهم في السيطرة على فاس. فلحقوا بسجلماسة وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم، فأقاموا بها رسوم الملك والسلطان، ووزعوا خراجها على عرب المعقل حلفائهم الجدد، وأقطعوهم الإقطاعات. وهكذا ستصبح سجلماسة مرة أخرى عاصمة مستقلة لعبد الحليم بن أبي علي المتطلع للعرش المريني في استنساخ لتجربة أبيه.

أمام تطلع عبد الحليم للسيطرة على فاس وتخوف الوزير عمر بن عبد الله من استقلال عبد الحليم بسجلماسة، كان الصدام بين الفريقين شمالي سجلماسة دون أن يحسم أي منها المعركة لصالحه، ونظرًا لتكافؤ قوّتيهما جنحا للمهادنة مقابل احتفاظ كل منهما بمجال نفوذه. استمر عبد الحليم في حكم سجلماسة عامًا كاملًا، عرف الإقليم خلاله فتنة بين بطنين من ذوي منصور المعقليين هما الأحلاف وأولاد حسين، وقد كان عبد الحليم مائلًا إلى الأحلاف، فأوكل لأخيه عبد المؤمن مهمة الإصلاح بين البطنين، لكن ما حصل هو أن أولاد الحسين دَعَوا عبد المؤمن للخروج على أخيه، لكنه أبى، فأكرهوه على ذلك وبايعوه وزحفوا به على سجلماسة، وتغلبوا على الأحلاف وعبد الحليم في إحدى المعارك، ودخلوا المدينة وملكوها في شهر صفر من عام ٧٦٤/ ١٣٦٣. لم يبقَ أمام عبد الحليم إلا الإذعان للخلع، ويبدو أنه زهد بعد هذا الحدث في السياسة،

(١) راجع: سجلماسة وإقليمها ص ٢٦١.

فخـرج متجهًا إلى المشرق لقضـاء فريضة الحج تاركًا المدينة لأخيه عبد المؤمن، قبـل أن يدركـه الموت عـام ٧٦٦/ ١٣٦٥ وهو في طريق عودتـه من حجه[١].

كان انتصار أولاد الحسـين عـلى الأحلاف مؤشرًا لبدايـة مرحلة جديدة في تاريخ سجلماسة، طبعها الصراع الاجتماعي بين بطون عرب المعقل. وانعكس ذلك بدون شـك عـلى أوضاع المنطقة، بـأن اضطرب حبل الأمـن بها وتضرر نشـاطها التجـاري[٢]، وهو الصراع الذي شـجع الوزير عمر بـن عبد الله على تحالف مع الأحلاف في سبيل مهاجمة المدينة، وذلك ما حصل حين جهز الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماسي جيشًا وأرسله للسيطرة على المدينة، فدخلها عام ٧٦٤/ ١٣٦٣ دون مشقة بعد أن غادرها عبد المؤمن نحو مراكش، حيث سيُلقَى عليه القبض ويُحبس إلى أن يتم قتله في محبسه. وكذلك فعل ابن أخيه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن الذي اختار اللجوء إلى تادلة، ثم إلى الأندلس عام ٧٦٧/ ١٣٦٦ بعـد فشـله في هـزم الوزيـر عمر بن عبـد الله الحاكـم الفعـلي للدولـة المرينية.

في السـنوات التالية تغيرت مجموعة من الأمور والوجوه في الدولة المرينية، وخاصـة الوزير عمر بـن عبد الله، الذي تخلص منه السـلطان عبـد العزيز بن أبي الحسـن، كما تخلص من كل الوزراء وشـيوخ القبائل المنافسين له على حكم المغـرب، حتـى بدا أن هذا السـلطان سـيعيد الروح مـن جديـد للدولة، لولا أن وافتـه المنيـة عـام ٧٧٤/ ١٣٧٣. وبموته سـيطر وزيره أبو بكـر بن غازي، فذهبت جهود السـلطان عبد العزيز سدى، وعادت الدولة لما كانت عليه قبل توليه. في المقابل كان بنو الأحمر ملوك غرناطة يتربصون بكل فرصة للتدخل في الشـأن المغربي، فوجدوا في موت السلطان عبد العزيز فرصة مناسبة، وجهزوا

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٤٢٢ وما يليها.

(٢) راجع: سجلماسة وإقليمها ص ٢٦٩.

عبـد الرحمن بن أبي يفلوسـن بجيش وأرسـلوه للمطالبة بعـرش الدولة. المهم هو أن عبد الرحمن بعد عجزه عن السـيطرة على فاس سـيتحالف مع ابن عمه أبي العبـاس أحمد، وسيسـاعده على انتزاع العرش مقابل تنـازل أبي العباس له عن سجلماسـة مدينة جده وأعمامه. غير أن عبد الرحمن سـينقض عهده مع أبي العباس، ويشترط عليه وهما محاصِران لفاس أن ينزل له عن مراكش أيضًا، فما كان من أبي العباس إلا أن فعل ذلك مكرهًا؛ خوفًا من المشاكل التي قد يسببها انسـحاب عبد الرحمن بجيشه وهم على وشـك دخول فاس. كان هذا سببًا في انقسام الدولة لمملكتين من جديد عام ٧٧٦/ ١٣٧٥، واحدة عاصمتها فاس، والأخرى عاصمتها مراكش وتشـمل سجلماسـة أيضًا. استمر عبد الرحمن في سـلطانه بمراكش إلى أن حاصره أبو العباس بها عام ٧٨٤/ ١٣٨٣ واسـتطاع التغلب عليه، ومد نفوذه على مراكش وسجلماسـة لكن ليس لوقت طويل، إذ إن عرب المعقل سيعودون لفتنهم من جديد ويعلنون خروجهم على السلطان؛ ما سيزج بسجلماسة في مسلسل طويل من الاضطرابات[1].

في خضم هذه الاضطرابات كان أمير مريني هو محمد بن عبد الحليم بن أبي علي مقيمًا بتلمسان عند السلطان الزياني أبي حمو، فلما انتقض أولاد الحسين من عرب المعقل على الوزير المستبد بفاس مسعود بن عبد الرحمن بن ماسي، استغل السـلطان الزياني ذلك وأرسـل محمد بن عبد الحليم إلى عـرب المعقل ليجلب بهـم على المغـرب، ويمزقوا من الملـك ما قدروا عليه. فدخل محمد سجلماسـة وملكها عام ٧٨٩/ ١٣٨٨ بمسـاعدة الأحلاف- شيعة أبيه- والوزير علي بن إبراهيـم، غـير أن ملكه بها لن يكلل بالنجاح بسـبب التطورات التي شـهدتها العاصمـة فـاس من جهة، ولأنـه أدرك ربما أن تأسـيس ملـك في ظل الصراع المحتدم بين عرب من الأحلاف وأولاد الحسين أمر مستحيل من جهة أخرى،

(١) راجع: ابن خلدون ج ٧ ص ٤٤٧ وما يليها؛ سجلماسة وإقليمها ص ٢٨٢.

فغـادر المدينة على جناح السرعة ملتحقًا بتلمسـان ثم بتونس ثم بالمشرق لأداء فريضة الحج كما فعل والده قبله[1].

تخريب سجلماسة

وتغيب عنا أخبار سجلماسـة في الفترة الفاصلة ما بين تاريخ فشـل سـلطنة محمـد بن عبـد الحليم بها، وتاريـخ تخريبها الذي لا نعرف عن تفاصيله شـيئًا، باسـتثناء إشارة الوزان الذي قال: (وقد استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحديـن، وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءَهـم. وظـل الأمـر كذلـك إلى أن مـات أحمـد- أبي العبـاس "المتـوفي عام ٧٩٦/ ١٣٩٢"- ملـك فـاس، فثار الإقليـم وقتل أهل البـلاد الوالي وهدموا سـور المدينة، فبقيت خالية إلى يومنا هذا. وتجمـع الناس فبنوا قصورًا ضخمة ضمـن الممتلـكات ومناطـق الإقليـم، بعضهـا حـر، والبعض الآخـر خاضع للإعـراب[2]). والغالب فيما يظهـر أن ثورة الأهالي هاته لم تأتِ على المدينة مرة واحدة، وإنما كانت بداية لأعمال تخريب متوالية، طمسـت معالم المدينة تدريجيًّا طيلة النصف الأول من القرن التاسع الهجري[3].

هكذا إذن فقد المغرب إحدى درر مدنه وأعظمها مكانة وتاريخًا وحضارة. ويمكننـا أن نسـتنتج بعد ما ذكرناه أن خراب سجلماسـة لم يكـن نتيجة لعامل واحد، وإنما نتيجة لعدة عوامل تضافرت للنيل من المدينة. كما أن خرابها لم يكن حدثًا مفاجئًا، بل خاتمة شـبه حتمية لعدة إرهاصات سـابقة. ففشَلُ بني مرين في التعامـل مع سجلماسـة كما فعل أسـلافهم المرابطـون والموحدون، وزجهم

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٤٧٧.

(٢) الوزان ج ٢ ص ١٢١؛ انظر أيضًا: سجلماسة وإقليمها ص ٢٨٨.

(٣) سجلماسة وإقليمها ص ٤١٣.

بها في صراعاتهم السياسية، وعدم تحرجهم من حصارها واستباحتها في أكثر من مرة، ووصول العرب إلى إقليمها وهيمنتهم على مجالاتها الحيوية، وعيثهم فيها فسادًا وتخريبًا وسلبًا ونهبًا، والظروف المناخية القاسية التي عرفتها المنطقة وتوالي الجوائح عليها، إضافة إلى تحول المسالك التجارية نحو الشرق وخاصة إلى مصر، كلها عوامل أدت لاضطراب حبل الأمن، وتدهور النشاط السياسي والمالي والتجاري والفلاحي والعمراني بها، وبالتالي حرمان المدينة من شرايين الحياة التي غذتها ومنحتها الاستقرار والازدهار، وكانت سببًا في تموقعها كإحدى أهم المدن المغربية لأكثر من ستة قرون.

كان خراب سجلماسة من جملة الأسباب العديدة والبنيوية، التي أدت لتحول التدفقات المهمة، التي كانت تصل إلى المغرب طيلة العهد المرابطي والموحدي والمريني الأول، وتساهم في قوة الدولة واستقرارها، وتوجه تلك التدفقات نحو جهات أخرى خاصة إلى الشرق. ورغم تدخل أحمد المنصور السعدي عسكريًّا في الصحراء وإعادة فرض السيطرة المغربية على واحات توات وتيكورارين وممالح تغازى في مرحلة أولى، ثم بسط نفوذه على مصادر التبر في بلاد السودان مباشرة في مرحلة ثانية، فإن تلك السيطرة لم تدم طويلًا، وسرعان ما خفّت بعد موته. كما أن دخول البلاد في حرب أهلية وانقسام أعاد الطرق التجارية لسابق اضطرابها. ولم تكن محاولات المولى إسماعيل لاسترجاع دور سجلماسة القديم كباب للتبر لتفلح. ورغم أن استمرار القوافل في قطع الطريق بين المغرب والسودان استمر إلى حدود القرن العشرين، فإن العهد الذهبي للتجارة الصحراوية كان قد ولى دون رجعة، أما القليل الذي كان يصل إلى المغرب فإنه كان يعرف طريقه إلى أوروبا، دون أن تستفيد منه الدولة في شيء، كما كان الحال زمن الدولتين المرابطية والموحدية.

قبيلة مكناسة

قبيلة أمازيغية بترية، ينتهي نسبها وفق النظرية النسبية عند ابن حزم وابن خلدون إلى مكناسة بن وارسطف بن يحيى بن ضري بن زحيك بن مادغيس بن بر[١].

تعتبر مكناسة من القبائل المغربية الكبيرة التي توزع وجودها بشكل رئيسي- على التقريب لا على التحديد- في المنطقة الواقعة ما بين مليلة شمالًا وسجلماسة جنوبًا. أي في النجود الشرقية العُليا، وفي حوض وادي ملوية وحول وادي زيز، وبنواحي مدينة تازة ومنطقة التسول[٢]، وفي هضبة سايس حول مدينة مكناس[٣]، كما وجدت بطون منها حول مدينة تلمسان[٤]، وبجبل وانشريس[٥]، وبشمالي تيهرت[٦]، وبشمالي تهوذا[٧] (بسكرة)، وبجبل الأوراس[٨]. وقد تردد ذكر المجال الواقع في حوض وادي ملوية في أكثر من مصدر ببلاد مكناسة، ولذلك نجد المصادر تارة تستعمل اسم مكناسة للدلالة على القبيلة من حيث هي مجموعة بشرية تعود لجد واحد، وتارة أخرى

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٦؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٠.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٠.

(٣) نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٤٤.

(٤) اليعقوبي ص ١١٣.

(٥) نزهة المشتاق ج ١ ص ٢٥٣.

(٦) البكري ج ٢ ص ٢٤٩.

(٧) البكري ج ٢ ص ٢٥٥.

(٨) البكري ج ٢ ص ٣٢٩.

تستعمله للدلالة على المجال الجغرافي الذي شغلته بطون القبيلة منذ فترات ما قبل الإسلام، وأسست به مجموعة من المدن والمداشر أبرزها: مكناس وتازة ومليلة وگرسيف. هذا دون أن تعطينا صورة شافية عن البنية البشرية لبطون القبيلة داخل هذا المجال، الذي لا نعلم أن قبائل أخرى شاركتها فيه، أو تداخلت مجالاتها معها فيه بفعل حركة الترحال المستمرة. وأيضًا دون أن ترسم لنا خارطة واضحة ومضبوطة لحدودها الجغرافية.

لا نعلم الدور الذي لعبته مكناسة في مقاومة الزحف الأموي على البلاد، غير أن حلفها الذي ظل قائمًا مع أَوَرْبة حتى مطلع القرن الثالث الهجري على الأقل، يدل على انخراطها في المقاومة التي قادتها أوربة بقيادة زعيمها كسيلة بن ملزم للأمويين. على أننا نعرف من ابن خلدون أن قيادة القبيلة كانت خلال هذه الفترة راجعة لابن أبي نزول مجدول بن تاقريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس، الذي افترقت القبيلة بعد موته إلى مكناسة الشمال ومكناسة الصحراء[1]. ثم بعد تولية طارق بن زياد ولاية طنجة أقبل المكناسيون كغيرهم من القبائل على الانضمام لجيش الفتح، فكان لأفرادها في الأندلس استيطان[2]، ثم بعد ذلك شأن ورياسة. ومن أبرز رجالها في الأندلس شقيا المكناسي[3]،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١.

(٢) الاصطخري ص ٤٤.

(٣) شقيا بن عبد الواحد المكناسي، يعرف أيضًا بالفاطمي نسبة إلى أمه فاطمة وإلى النسب الفاطمي الذي ادعاه. كان معلمًا في كُتَّاب في شنت برية Santaver قبل أن ينسب نفسه إلى الحسين بن علي لاكتساب الشرعية، ويعلن الثورة على عبد الرحمن الداخل عام ١٥٠هـ، ويدعو الناس إلى الدخول في دعوته التي تستهدف تخليص الأندلس من الحكم الأموي. دخلت في دعوته أعداد كبيرة من أمازيغ الثغر الأوسط ودانوا بدعوته. وخلال عشرة أعوام استطاع شقيا السيطرة على عدة قواعد وحصون، وإلحاق الهزيمة تلو الأخرى بجيوش عبد الرحمن الداخل، بفضل ما تميز به من ذكاء ومكر ودهاء، وقدرة ساحرة على التأثير في القلوب والعقول، وأيضًا لاعتماده على الجبال كقواعد خلفية لعملياته التي تميزت بالمباغتة والمناورة. حتى إذا ما حل عام ١٦١هـ (على اختلاف) غدر بشقيا رجلان من أصحابه واغتالاه وسارا

الثائر على عبد الرحمن الداخل عام ١٥٠هـ. وسليمان بن وانسوس المكناسي[١] الوزير المشهور (المتوفى أواخر القرن الثالث الهجري في تاريخ غير محدد) وأحد أفراد أسرة بني وانسوس، التي عرفت بالشرف والمكانة والرياسة بالمغرب والأندلس خاصة، نظرًا لما كان لجدهم وانسوس من دور في إيواء عبد الرحمن الداخل حينما فر إلى المغرب. وإلى مكناسة أيضًا ينتمي عبد الله بن مسلمة مؤسس سلالة بني الأفطس التي حكمت مملكة بطليوس خلال فترة ملوك الطوائف[٢]. وطائفة من علماء الأندلس كمقرئ شاطبة الفقيه المحدث أبي عبد الله محمد بن فرج بن سليمان المكناسي. وابنه المقرئ الرياضي الأديب عبد العزيز بن محمد بن فرج المتوفى عام ٥٣٦هـ[٣]. وحفيده المقرئ الفقيه المحدث الأديب ابن تَرِيس محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن فرج المتوفى عام ٥٦١هـ[٤].

أشرنا إلى أن زعيم مكناسة الصحراء سمغو بن واسول بن مصلان بن أبي نزول شارك في ثورة ميسرة وتبنى المذهب الخارجي كبقية زعماء القبائل في هذه الفترة؛ ما يدل على انخراط قبيلته فيها أيضًا، لكننا لا نعلم في المقابل مدى مشاركة مكناسة الشمال في الثورة ولا دورها فيها، ولا المذهب الذي تبنته ولأي حد؛ نظرًا لغياب أي معلومات عنها. أما مكناسة المغرب الأوسط فقد كانوا إباضية كحلفائهم هواريين[٥].

برأسه إلى أمير قرطبة. وبذلك انتهت ثورته الطويلة التي تعد أول محاولة لإقامة دولة تنتسب لآل البيت في الغرب الإسلامي كله. راجع: ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٧. وقارن البيان ج ٢ ص ٥٤؛ أخبار مجموعة ص ٩٧.

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٩.

(٢) الحلة السيراء ج ٣ ص ٩٦.

(٣) التكملة لكتاب الصلة ج ٣ ص ٩١.

(٤) التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ص ٢٨.

(٥) البكري ج ٢ ص ٢٥٥.

مكناسة الشّمال

قلنا إن القبيلة افترقت بموت ابن أبي نزول، فصار لزامًا علينا تقسيم مكناسة- شأنها شأن صنهاجة مثلًا- إلى مكناسة الشمال- إضافة إلى المجموعة الموجودة بالمغرب الأوسط، والتي كانت علاقتها بمكناسة الشمال قائمة- وهم مستقرون في مجموعة من التجمعات الحضرية والقروية في السهل والجبل، يمتهنون الزراعة والرعي. وبين مكناسة الصحراء، التي اعتمدت نمطًا رعويًّا ترحاليًّا؛ ما يؤكد أن تباينًا نمطيًّا قويًّا قطع الصلة بين المجموعتين المكناسيتين وفصل بينهما[1]، لا على مستوى نمط العيش فقط، وإنما على المستوى الاجتماعي والثقافي[2] والمذهبي والسياسي والنفسي. ففي الوقت الذي تبنى فيه مكناسيو الصحراء المذهب الصفري واستعانوا بمبادئه لتأسيس كيان سياسي مستقل ومزدهر بسجلماسة، بقي مكناسيو الشمال عاجزين عن الانتقال من طور القبيلة إلى طور الدولة-القبيلة، الأمر الذي جعلهم تابعين بصورة أو بأخرى للكيانات السياسية التي ظهرت بالمنطقة، ونعني هنا إمارة بني صالح في نكور[3]، والإمارة الإدريسية بعد ذلك. ويجب استحضار أن مكناسة كانت داخلة في حلف قبلي ضم قبائل الأطلس المتوسط وجبال الريف، وتزعمته القبيلة الأقوى بمنطقة أوربة، كمدخل لفهم السياق

(١) انظر: مجتمع المغرب الأقصى ج ٢ ص ٩٠.

(٢) وذلك ما دفع ابن حوقل لوصف سكان سجلماسة- وأغلبهم مكناسي- بأنهم: (...يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر...). ابن حوقل ج ١ ص ٩١.

(٣) البكري ج ٢ ص ٢٧٦؛ البيان ج ١ ص ١٧٧.

الذي بايعت فيه لإدريس الأكبر فيمن بايعه من قبائل[1]، وموقفها من الإمارة الإدريسية في مرحلة أخرى.

رأينا كيف تعرضت مكناسة الصحراء لعدة هجمات أضعفتها وأذهبت عصبيتها، ابتداء من الهجوم الفاطمي عام ٢٩٦هـ، وانتهاء بهجوم مغرواة عليها عام ٣٦٦هـ. وبقي لنا أن نجمل أخبار مكناسة الشمال، التي كان لها دور مهم في الصراع الفاطمي-الأموي على بلاد المغرب.

يذكر ابن خلدون أن زعامة مكناسة انتهت إلى رجلين هما مصالة بن حبوس وابن عمه موسى بن أبي العافية، دون أن يبين هل تشارك الرجلان مشيخة القبيلة- وهو بعيد- أم أنه كان لكل واحد منهما منطقة نفوذ متصلة بالأخرى بصورة غير واضحة؟ وهو الأرجح نظرًا لسياق الأحداث وتطورها؛ فتكون عندئذ مكناسة المغرب الأقصى تحت نفوذ موسى، بينما مكناسة المغرب الأوسط تحت نفوذ ابن عمه مصالة. وقد تزامنت زعامتهما مع ظهور الدولة الفاطمية، فكانا من شيوخ القبائل التي شايعت الفاطميين، وخاصة مصالة بن حبوس الذي جعل من نفسه وقبيلته سلاحًا في يد عبيد الله المهدي، ولم يكتفِ بمجرد الاتباع والاعتراف بالسيادة، بل كان الرجل الأول لعبيد الله المهدي بالمغربين الأوسط والأقصى، والقائم بكل الأعمال العسكرية بهما. وقد ولاه عبيد الله مدينة تيهرت عام ٢٩٩هـ، ثم زحف في عام ٣٠٥هـ إلى نكور عاصمة بني صالح، واستطاع الاستيلاء عليها، كما هاجم فاس دون أن يستطيع كسر مقاومتها، وبعد أن أنهى ما جاء لأجله رجع إلى مقرّه، بعد أن كافأ ابن عمه موسى بن أبي العافية الذي سانده في جميع حروبه في البلاد، بأن عقد له على سائر ضواحي المغرب وأمصاره. هاته المكافأة التي تنطوي على تكليف ثقيل، وتؤكد

(١) روض القرطاس ص ٢٠.

سياسة ضرب القبائل المغربية ببعضها التي انتهجها الفاطميون والأمويون بصورة أقل. وابتداء من هذا التاريخ سيصبح موسى حليفًا للفاطميين كابن عمه مصالة، ورجلهم الأول في النصف الشمالي من المغرب. وفي عام ٣٠٨هـ عاد مصالة إلى المغرب لينفذ حملته الثانية التي هاجم فيها نكور مرة ثانية بعد أن خرجت عن طاعة الفاطميين، ثم فاس عاصمة الأدارسة، وسجلماسة عاصمة بني واسول المكناسيين عام ٣٠٩هـ، واستولى عليها جميعها؛ وبهذا يكون قد أخضع أهم الحواضر المغربية، تنفيذًا للسياسة الفاطمية الرامية للسيطرة على أهم المسالك وخطوط التجارة ببلاد المغرب، قبل أن يعود إلى مقر قيادته بتيهرت عام ٣١٠هـ، ويُقتل بعد ذلك في أحد حروبه مع محمد بن خزر زعيم مغراوة عام ٣١٢هـ[1]، تاركًا الساحة لابن عمه موسى ابن أبي العافية.

لم يكن موسى ابن العافية شيخ قبيلة عاديًّا، فقد استطاع منذ نهاية القرن الثالث الهجري أن يقوي قبيلته ويخرج بها من تحت طاعة بني صالح في نكور والأدارسة في فاس، مستغلًّا حالة الهِرَم التي أصابت هاتين الإمارتين من جهة، وحالة التراجع التي أصابت العصبيات المغربية الأخرى في المنطقة من جهة أخرى، كما أنه تغلب على القبائل المجاورة له، ووصل بغزواته إلى ضواحي فاس، وكانت بينه وبين الأدارسة فتن وحروب. وعندما انضم ابن عمه إلى الفاطميين وهاجم بني صالح والأدارسة وبني واسول، وجد موسى في ذلك فرصة مناسبة له للقضاء على الإمارات التي تقف كعوائق أمام طموحه الكبير، فشارك بقبيلته إلى جانب مصالة في كل حروبه، ليس حبًّا في الفاطميين ومشايعة لهم كابن عمه، وإنما للاستعانة بقوتهم على تحقيق طموحاته السياسية. ورغم أن مصالة ولّاه على سائر أمصار المغرب وأعماله عقب حملة عام ٣٠٥هـ، إلا

(١) انظر فيما سبق: البيان ج ١ ص ١٧٩ وما يليها؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٦؛ البكري ج ٢ ص ٢٧٨؛ روض القرطاس ص ٨٠ وما يليها.

أن موسى رأى أن هذا لن يخدمه في شيء ما دام لم يتم القضاء نهائيًّا على هاته الإمارات، وخاصة الأدارسة الذين يتمتعون بمكانة اعتبارية كبيرة بالبلاد، رغم فقدانهم لثقلهم السياسي. فعمل على تأليب ابن عمه على أمير فاس إلى أن أوغر صدره عليه، فما كان من مصالة إلا أن نكبه ونفاه عن فاس في حملته الثانية. إلا أن الأدارسة رغم كل ما فعله مصالة بأميرهم سيحاولون الانبعاث من رمادهم، وسينجحون في استرجاع فاس من يد العامل الذي عينه مصالة بها قبل أن يغادر البلاد. ولم يكن موسى ليسمح بذلك مهما كلفه الثمن، فحشد جيوشه- في ظل انشغال ابن عمه بحرب زناتة- وسار للقضاء عليهم، غير أن الأدارسة بقيادة أميرهم الحسن الحجام سيُلحِقون بموسى هزيمة منكرة، لكن دون أن يكون لها وقع استراتيجي كبير؛ لأن الحجام بعد عودته إلى مدينته سيجد في انتظاره مؤامرة محبوكة، ستكون سببًا في هلاكه وتسليم المدينة إلى موسى على طبق من ذهب. ثم بعد موت مصالة خلت الساحة لموسى وأصبح أقوى زعيم قبلي بالمغرب دون منازع؛ الأمر الذي شجعه على الدفع بمشروعه الطموح المتمثل في تأسيس إمارة له ولبنيه إلى الأمام، فدشن مجموعة من الأعمال العسكرية سيطر خلالها على عدة مدن وقواعد بشمال المغرب، وأخذ البيعة من شيوخ القبائل بها، كما تتبع الأدارسة بالقتل حتى ألجأهم إلى حصن النسر، كما نذكره في محله من ترجمة إدريس الأزهر. وفي عام ٣١٩هـ غزا تلمسان وسيطر على إقليمها، ووصل بغزواته إلى أحواز تيهرت دافعًا أمير زناتة محمد بن خزر للتراجع أمامه، ثم هاجم مدينة نكور وسيطر على إقليمها.

في العدوة الشمالية كان عبد الرحمن الناصر يتابع أعمال موسى والتطورات التي تجري في المغرب باهتمام بالغ، وما إن وطد سلطانه حتى عمل على استمالة موسى إلى جانبه؛ عملًا بالسياسة البراغماتية القائمة إجمالًا على النقاط التالية:

– استقطاب زعماء القبائل لضمان نوع من التحكم في البلاد المغربية عبرهم، وبالأخص في خطوط التجارة الصحراوية.

– تفادي أي تدخل في نفوذهم القبلي أو ضلوع في صراعاتهم الناشئة بينهم على المجال مع العمل على استغلالها سياسيًّا.

– تجنب التدخلات العسكرية في البلاد، إلّا للقيام بعمليات تأديبية في حق الزعماء الخارجين عن الطاعة.

– تجنب جرح كبرياء الزعماء، والاعتراف لهم بسيادتهم القبلية.

– احتلال مجموعة من النقاط الاستراتيجية الساحلية لتمركز البحرية؛ لتأمين السواحل الأندلسية من جهة، ولتسهيل أي إنزال عسكري في المستقبل من جهة أخرى.

وهاته السياسة الأندلسية هي النقيض تمامًا للسياسة التي اتبعها الفاطميون، والتي قامت أساسًا على إرسال الحملات العسكرية الكبيرة[1]، لفرض السيادة بالقوة أكثر من اصطناع الزعماء المحليين، وهي سياسة لم تؤتِ أكلها لتنافيها مع الشّخصية المغربية الحريصة على استقلالها.

أعلن موسى البيعة للناصر عام ٣١٩هـ، وخطب له على المنابر، وما إن وصل الخبر إلى عبيد الله المهدي حتى أمّر حُميد بن يصليتن المكناسي ابن أخي مصالة ابن حبوس على رأس جيش كبير، ووجّهه لمقاتلة موسى وإعادة النفوذ الفاطمي على المناطق الخارجة عن الطاعة. وبالفعل استطاع حميد استعادة

(١) قام الفاطميون بست حملات على المغرب- دون احتساب حملة أبي عبد الله الداعي على سجلماسة عام ٢٩٧هـ وحملة ابنه أبي القاسم على المناطق الشرقية في منطقة حوض نهر ملوية عام ٣١٠هـ- وهي: حملتا مصالة عام ٣٠٥هـ وعام ٣٠٨هـ، وحملة حُميد بن يصليتن عام ٣٢٠هـ، وحملة ميسور الخصي عام ٣٢٣هـ، وحملة جوهر الصقلي ٣٤٧هـ؛ حملة بولكين بن زيري عام ٣٦٩هـ.

فاس من قبضة موسى بعد أن ألحق به الهزيمة. وكسابقاتها لم يكن لهذه الحملة أثر يذكر، إذ سرعان ما ستخلع فاس طاعة الفاطميين بمجرد مغادرة الجيش الفاطمي وتعود لنفوذ الزعيم المكناسي. وفي عام ٣٢٣هـ ستصل المغرب حملة فاطمية كبيرة يقودها ميسور الخصي، ستقصد فاس مباشرة وتضرب عليها حصارًا شديدًا دون أن تستطيع اقتحامها. أما موسى الذي ظل طيلة مدة الحصار يناوش الجيش الفاطمي، فإن ميسورًا بعد يأسه من اقتحام فاس سيصالح عاملها، ويتجه مدعومًا بالأدارسة مباشرة لمحاربة موسى. وسيخوض الفريقان معارك طاحنة[١] أسفرت عن هزيمة موسى وتراجعه نحو الصحراء، وتملُّك الأدارسة لما كان في يديه إلى حين.

ما إن غادر ميسور المغرب عام ٣٢٤هـ حتى استعاد موسى مجالات نفوذه مدعومًا بالأسطول الأندلسي، واستمر قائمًا بأمر المغرب منازعًا للأدارسة- الذين تقلبوا بدورهم بين طاعة الأمويين والفاطميين- عليه إلى أن هلك في تاريخ غير مضبوط[٢]. بعد موت موسى خَلَفَه في زعامة مكناسة ابنه مدين، فأقره الناصر على ما في يده من بلاد وعقد له مكان أبيه، بينما تفرق المُلك الذي ناضل موسى طويلًا من أجله بين أبنائه الثلاثة مدين والبوري ومنقذ؛ ما فتح باب الصراع بين الإخوة. توارث بنو أبي العافية حكم قبيلة مكناسة وملك أبيهم، الذي دب الضعف إليه ابتداء من تاريخ موت مدين بن موسى عام ٣٤٥هـ، إلى أن ظهرت دولة المرابطين منتصف القرن الخامس وزحف عليهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقتل زعيمهم وقتئذ القاسم بن محمد بن عبد

(١) انظر رسالة موسى للناصر: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ص ٢٨٩، نقلا عن ابن حيان.

(٢) يؤرخ ابن أبي زرع لوفاته بعام ٣٤١ ويذكر تاريخًا آخر نقله عن البرنسي وهو عام ٣٢٨هـ، والتاريخ الثاني أرجح؛ لأن زعامة مكناسة ستكون عام ٣٣٥هـ لابنه مدين كما ذكر ابن خلدون. انظر: روض القرطاس ص ٨٦؛ ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٨.

الرحمـن بن إبراهيم بن موسـى بـن أبي العافية عام ٤٦٣ هـ، فكان ذلك سـبب انقراض مُلك مكناسة وذهاب عصبيتها[١].

لم يبـقَ اليـوم بالمغرب وحدة قبلية تحمل اسـم مكناسـة، إلا أن هناك بضعة مواقع احتفظت بمضمونها الطوبونيمي، وهي فيما نعلم:

– مدينة مكناس التي تؤكد المصادر أنها من إنشاء القبيلة.

– جماعتـا مكناسـة الغربية ومكناسـة الشرقية بنواحي مدينـة تازة، في قلب بلاد مكناسة التاريخية.

أمـا خـارج المغـرب فنجـد: مدينة/ حصـن مكناسـة (**Mequinenza**) الواقع على نهر الإيبرو قرب مدينة لاردة[٢]. كما توجد منطقة ووادٍ قرب مدينة الشلف بالجمهورية الجزائرية يحملان الاسم.

(١) انظـر فيمـا سـبق: الأنيس المطرب ص ٨٢؛ ابـن خلـدون ج ٦ ص ١٧٦، ج ٤ ص ٢١؛ البيان ج ١ ص ١٩٤ وما يليها.

(٢) نزهة المشتاق ج ٢ ص ٧٣٣.

قائمة المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم (العهد المدني).

٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي (ت نحو ٣٨٠هـ)، مكتبة مدبولي- القاهرة، الطبعة الثالثة .١٩٩١

٣) أخبار مجموعة، لمؤلف مجهول، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، الطبعة الثانية ١٤١٠/ .١٩٨٩

٤) الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مراكشي مجهول من أهل القرن السادس الهجري، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة.

٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد الناصري (ت ١٣١٥هـ)، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب- الدار البيضاء ١٤١٨/ .١٩٩٧

٦ ٣٣٦هـ)، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية- تونس، ديوان المطبوعات- الجزائر، الطبعة الثانية .١٩٨٦

٧) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، دار المنصور للطباعة- الرباط .١٩٧٢

٨) البلدان، اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ)، المكتبة المرتضية ومطبعتها الحيدرية- العراق، بدون تاريخ.

٩) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، ابن عذاري المراكشي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الثقافة- الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦/ .١٩٨٥

١٠) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي (ت نحو ٦٩٥هـ)، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة- بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٣. (بالنسبة

للجزء الأول والثاني).

١١) تاريخ ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر- بيروت، الطبعة ١٤٢١/ ٢٠٠١.

١٢) تاريخ المغرب العربي (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب)، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب- الدار البيضاء ١٩٦٤.

١٣) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، منشأة المعارف- الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

١٤) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة- لبنان، ١٤١٥/ ١٩٩٥.

١٥) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف- مصر، طبعة ١٩٦٢.

١٦) الحلة السيراء، ابن الأبار البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف- القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٥.

١٧) الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، محمود إسماعيل، دار الثقافة- الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٩٨٥.

١٨) الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي)، محمد الطالبي، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥/ ١٩٩٥.

١٩) رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ابن بطوطة الطنجي (ت ٧٧٩هـ)، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧/ ١٩٩٧.

٢٠) الروض المعطار في خبر الأقطار، أبو عبد الله الحِميرى (ت ٩٠٠هـ)، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة- بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠.

٢١) سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، حسن حافظي علوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، ١٤١٨/ ١٩٩٧.

٢٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أبو العباس القلقشندي (ت ٧٢١هـ)، مطبعة المطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة .١٩٢٢

٢٣) الصحاح.. تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧/ ١٩٨٧.

٢٤) صحيح مسلم (ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة ١٣٧٤/ .١٩٥٥

٢٥) صورة الأرض، ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ)، ليدن، الطبعة الثانية .١٩٢٨

٢٦) عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ١٣٦٦/ .١٩٤٩

٢٧) العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، عبد العزيز فيلالي، دار الفجر- القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٩.

٢٨) الكامل في التاريخ، أبو الحسن ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨/ .١٩٩٧

٢٩) مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي، هاشم العلوي القاسمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٤١٥/ .١٩٩٥

٣٠) المدخل، ابن الحاج الفاسي (ت ٧٣٧هـ)، دار التراث- القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٣١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ)، المجمع الثقافي- أبو ظبي، الطبعة الأولى .١٤٢٣

٣٢) مسالك الممالك، الإصطخري (ت ٣٤٦هـ)، ليدن .١٩٢٧

٣٣) المسالك والممالك، أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤/ ٢٠٠٣.

٣٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أبو العباس الفيومي الحموي (ت نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية- بيروت.

٣٥) معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٤١٠/ .١٩٨٩

٣٦) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة ١٤٢٣/ .٢٠٠٢

٣٧) المُغرب في حلى المَغرب، ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ)، شوقي ضيف، دار المعارف- القاهرة، الطبعة الثالثة .١٩٥٥

٣٨) مفاخر البربر، لمؤلف مجهول (عاش في القرن الثامن الهجري)، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق الرباط، الطبعة الأولى .٢٠٠٥

٣٩) مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق عبد الله الدرويش، دار يعرب، الطبعة الأولى ١٤٢٥/ .٢٠٠٤

٤٠) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

٤١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ)، مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة، طبعة ١٤٢٢/ .٢٠٠٢

٤٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أحمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت، طبعة .١٩٩٧

٤٣) وصف إفريقيا، الحسن الوزان الفاسي، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية .١٩٨٣

الفهرس

إهداء ٧
تقديم ١١
السّردية ١٣
شخصيّة فذّة ٦١
العبرة ٦٣
لمحة من تاريخ إمامة بني واسول ٦٥
قبيلة مكناسة ١٠١
مكناسة الشّمال ١٠٥
قائمة المصادر والمراجع ١١٣
الفهرس ١١٧